
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ ٢٠١٩م

قل كل يعمل على شاكلته

منشورات:





النجف الأشرف
٠٠٩٦٤ ٧٨١٠٠٠١٩٠٢
m-alshirazi.com

قل كل يعمل على شاكلته

محاضرات تفسيرية ـ فلسفية عن الشخصية الإنسانية

أبحاث

سماحة السيد مرتضى الحسيني الشيرازي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

١٤٢٣


اللهم كن لوليك
الحجة بن الحسن
صلواتك عليه وعلى آبائه
في هذه الساعة وفي كل ساعة وليا وحافظا
وقائدا وناصرا ودليلا وعينا حتى تسكنه أرضك
طوعا وتمتعه فيها طويلا



الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولاقوه إلا بالله العلي العظيم.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾

معاني الشاكلة وتأثيراتها على السلوك الإنساني

المقدمة

قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ وَلا يَزيدُ الظَّالِمينَ إِلاَّ خَساراً ۞ وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً ۞ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبيلاً﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: ٨٤.

موضوع البحث

موضوع البحث هو: الشاكلة الإنسانية على ضوء هذه الآية الشريفة، وللشاكلة معنى واسع عميق؛ إذ تستبطن مفاهيم: الشخصية، والبنية، النية، المذهب، الطريقة، الطبيعة، السجيّة، الملكة، الحالات النفسية، والعقل الباطن أو اللاواعي.

هيكلية البحث

مجموعة من البصائر القرآنية التي ينطلق منها البحث عن: تعريف الشاكلة، دورها ومدى تأثيرها، مناشئ الشاكلة، أنواع الشاكلة ومراتبها، الموقف تجاه الشواكل المختلفة، مسائل كلامية وأصولية وفقهية تستنبط أو تستلهم من بحث الشاكلة، تحديد الأدوار والوظائف على ضوء الشواكل، كوابح الشواكل الخبيثة، إضافة إلى عناوين أخرى أشرنا إليها مجرد إشارة كالشاكلة بعد الشاكلة، وتداخل الشواكل.

معضلة البحث

إن الشاكلة تحتضن مفهوماً غامضاً إلى حدّ كبير، كما أن هناك سلسلة من المعضلات الفلسفية والعلمية التي تتعلق بالشاكلة الإنسانية مثل: هل أن الشاكلة اختيارية؟ وهل تأثيرها بنحو العِلّية؟ وما هو مدى تأثيرها على سلامة الفهم واستقامة الاجتهاد؟ وهل هناك مرجعيات وضوابط تصلح مقياساً لاستكشاف حدود تأثير الشاكلة على عملية الاستنباط أو لتحديد مدى صوابية التفكير؟

غاية البحث

إعادة بناء الشخصية الإنسانية على ضوء معرفة حقيقة شاكلتها، واكتشاف مستقبل الأفراد والعوائل والأمم على ضوء معرفة شواكلها، وأيضاً تحديد الأدوار

ورسم المسار انطلاقاً من تحديد نوعية الشاكلة والشخصية، وبعبارة أخرى:

ثمرة البحث: رسم المسار وكشف المستقبل

إن تحديد شاكلة الإنسان النفسية وشخصيته الحقيقية، يعدّ أكثر من ضرورة كي يحدّد الشخص موقفه من الأدوار التي يجب أن يضطلع بها أو الوظائف والمناصب التي يجب عليه أو يصح له أن يتقلدها، كما أن معرفة الشاكلة تساعده على أن يحدد موقفه في مرحلة تخطيطه لبناء مستقبل أولاده أو تلامذته أو موظفيه وأتباعه، بل ويرسم له من البداية مسار اختيار موظفيه وأعوانه سواء أكان في شركة أم في منظمة أم غير ذلك والأدوار والأعمال التي تناسبها أو التي لا تناسبها، ومن نماذج ذلك:

أـ إن من كان عجولاً أو غضوباً في شاكلته النفسية، فإن من غير الصحيح أبداً أن يصبح قاضياً أو طبيباً، خاصة في بعض التخصصات التي تحتاج إلى صبر ودقة وأناة كحقل العمليات الجراحية الدقيقة وغيرها.

ب ـ من كانت شاكلته النفسية العدوانية وقسوة القلب، فإنه لا يصلح أبداً لأن يعيّن في موقع وزير الداخلية أو الخارجية أو وزير الإعمار أو الزراعة أو وزير التعليم أو مساعداً لهم، كما لا يصلح لأن يكون مسؤولاً في منظمات الإغاثة وشبه ذلك.

ج ـ من كانت شاكلته النفسية الشهوانية وسيطرة القوة الشهوية عليه، فإنه لا يصح له أبداً أن يعمل كصائغ، حيث يكثر التعامل مع النساء، أو أن يعمل في المؤسسات الإنسانية التي يكون فيها على تماس مباشر مع النساء، كالمنظمات التي تهتم برعاية الأيتام والأرامل وشبه ذلك، كما لا يصح له أن يدرِّس في المدارس المختلطة أو في مدارس أو كليات البنات.

د ـ من عرف من شاكلة نفسه الانتهازية والطمع والأثرة، فعليه أن يتجنب تماماً الخوض في غمار السياسة فإن المناصب تزل قدم العقلاء الحكماء فكيف بمن تدعوه شاكلته النفسية للأثرة والانتهازية وشبه ذلك؟!

منهج البحث

يعتمد البحث على المنهج العلمي ـ التحليلي.

بصائر قرآنية في آية الشاكلة

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ فما هي الشاكلة؟ وما هو تعريفها؟

تعريف الشاكلة

(الشاكلة) مأخوذة من الشَّكل بالفتح أو من الشِّكل بالكسر، وحيث إن الشَّكل بالفتح له معنيان فمجموع المعاني ثلاثة:

المعنى الأول: التقييد فإنه أحد معنيي الشَّكل بالفتح، يقال مثلاً: شَكَلتُ الدابةَ أي قيّدتها وربطت رجلها مثلاً، كما يقال شكلت الكتابَ أي أعجمته أي قيدته بالإعراب ووضعت عليه الحركات (كي لا يسترسل الجاهل فيقرأه كما شاء) والشِّكال بالكسر هو عِقال الدابة وشدّ قوائمها بالحبل.

والشاكلة بهذا المعنى تعني الكوابح والقيود الداخلية التي تمنع الإنسان من أن يقول شيئاً أو يمارس فعلاً أو يتخذ موقفاً أو يعتنق مذهباً أو غير ذلك.

فهل الآية الشريفة تعني ذلك؟ أي أن كل شخص يعمل حسب شاكلته النفسية وكوابحه الداخلية وأن الحواجز والقيود والموانع الذاتية هي التي ترسم اتجاه حركته وأعماله فيسير في طريق معيّن مرسوم سلفاً وهو ذلك الطريق المشرَع أمام النفس مقابل البدائل الأخرى المغلقة في وجهه.

المعنى الثاني: الشِّبه والنظير، وهو من معاني الشَّكل بالفتح، كما قال تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۞ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾[1] أي نوع آخر من العذاب الإلهي مشابه للعذاب الأول، فقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ يعني على حسب سنخه أي أن عمله مناظر لشخصيته ومشابه لها، فإن

(١) سورة ص: ٥٧ ـ ٥٨.

الجوارح إنما تنسج على طبق الجوانح، وأن الظاهر حاكٍ عن الباطن، وأن العمل مَظهر والشاكلة هي المخبر، فالشاكلة النفسية تدفع الإنسان باتجاه أعمال وأفعال ومواقف وقرارات مشابهة لها ومسانخة ومتجانسة معها.

كما يحتمل في الشاكلة أن تكون مأخوذة من الشِّكل بالكسر، وهذا هو:

المعنى الثالث: الشكل بمعنى الهيئة، وعليه: فإن ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ يعني على حسب هيئته النفسية، أي على حسب صورته المحسوسة أو المتوهمة، وهو قريب من المعنى الثاني.

وعلى ذلك كله فإن (الشاكلة) تستبطن المعاني الآتية: النية ـ كما ورد في الرواية ـ الطبيعة، الخليقة، السجيّة، الملكة، الحالات النفسية، المزاج، البنية، المذهب والطريقة؛ ولذا يقال طريق ذو شواكل أي تتشعب منه عدة طرق والشواكل من الطرق ما انشعب من الطريق الأعظم، كما تستبطن الشاكلة العقل الباطن أو اللاواعي كما سيأتي، فالمستظهر هو أن الشاكلة تشمل تلك المعاني كلها.

الشاكلة الجسدية ودلالاتها

لقد تطرّف بعض العلماء حيث ارتأوا بأن (الشاكلة) تعني أو تشمل الشاكلة الجسدية وأن أعمال الإنسان وليدة خصوصياته الجسمانية ـ وسيأتي الكلام عن نظرية هؤلاء ـ كما تطرّف بعضهم عندما ارتأى بأن الخصوصيات الجسدية هي دلائل وعلائم أكيدة على شخصية الإنسان؛ ومن الغريب جداً في هذا الحقل ما ذهب إليه الفخر الرازي في كتاب (الفراسة) من التحليل للشخصيات على حسب سمات الوجه! فقد ذهب إلى تحليل الشّخصية حسب شكل الجبهة فقال: من كان مقطباً لجبهته مائلاً إلى البسط فهو غضوب! من كانت جبهته صغيرةً فهو جاهل! من كانت جبهته عظيمةً فهو كسلان وغضوب!



من كانت جبهته كثيرة العضويّة فهو صلف. من كانت جبهته منبسطةً لا غضون بها فهو مشاغب!

وذهب إلى تحليل الشّخصية حسب شكل الحاجب فقال: الحاجب الكثير الشّعر يكون صاحبه كثير الهمّ والحزن، غثّ الكلام، وإن كان حاجبه يميل من ناحية الأنف إلى أسفل ومن ناحية الصّدغ إلى فوق، فإنّه صلف أبله!

وذهب إلى تحليل الشّخصية حسب شكل العين فقال: من عظمت عينه فهو كسلان! من كان عيناه جاحظتان فهو جاهل مهذار! من كانت عيناه غائرتان فهو خبيث! من كانت عيناه غائرتان قليلاً فنفسه نبيلة! من كانت حدقته شديدة السّواد فهو جبان! إذا كانت العين حمراء مثل الجمر فصاحبها غضوب مقدام! من كان لون عينيه أزرق أو أبيض فهو جبان! من كانت عيناه بلون الشّراب الصّافي فهو جاهل! من كانت عيناه بارزتان فهو وقح! من كانت عيناه موصوفتان بالصّفرة والاضطراب فهو جبان! من كانت عيناه زرقاء كتلك التي تكون في زرقتها صفرة كأنّها صبغت بالزّعفران، فإنّها تدلّ على رداءة الأخلاق! - انتهى.

تعريفات علماء النفس للشاكلة

وقد يقال: إن (الشاكلة) هي نفس (الشخصية) بالمعنى العرفي، وبشكل أكثر دقة هي نفس (الشخصية) حسب مصطلح علماء النفس.

وقد عرّفها علماء النفس بأكثر من أربعين تعريفاً ننتخب منها أربعة:

أولاً: (الشخصية: هي مجموعة من الصفات الجسدية والنفسية الموروثة والمكتسبة ومجموعة من القيم والتقاليد والعواطف).

أقول: (القيم) مثل قيمة العدالة والرحمة والإحسان وغيرها فَمَن شاكلته النفسية الرحمة والإنسانية فإن تعامله مع الفقراء والمساكين والأيتام والضعفاء

بشكل عام يكون على نحو مختلف تماماً عمّن تُشكِّل القسوة والظلم شاكَلَتَهُ النفسية؛ ولذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام المظهر الأسمى للشاكلة الإنسانية النموذجية حيث تكشف عن ذلك الألوف من كلماته ومواقفه التي تفيض إنسانية ونبلاً ورحمة ولطفاً، ويكفي أن نشير إلى قوله عليه السلام:

مَا إِنْ تَأَوَّهْتُ مِنْ شَيْءٍ رُزِئْتُ كَمَا تَأَوَّهْتُ لِلْأَطْفَالِ فِي الصِّغَرِ

قَدْ مَاتَ وَالِدُهُمْ مَنْ كَانَ فِي النَّائِبَاتِ وَفِي الْأَسْفَارِ

ونجده يصرح تصريحاً قد لا يهضمه أبداً من ليست شاكلته النفسية الرحمة والرقة والإحسان، «وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهَدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلَائِدَهَا وَرِعَاثَهَا مَا تُمْنَعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ وَلَا أُرِيقَ لَهُ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ عِنْدِي بِهِ جَدِيراً...»[٢]، فمجرد سماع مثل هذا الخبر يكفي في منظار إمام الإنسانية الخالد لكي يتمزق الإنسان ألماً حتى يموت كَمَداً.

ثانياً: (الشخصية: هي المجموع الكلي للأنماط السلوكية الظاهرة والكامنة؛ المقررة بالوراثة والمحيط).

ثالثاً: (الشخصية: هي مجموع المفاتيح التي تقرر متى يستجيب الفرد؛ وكيف يستجيب و نوع الاستجابة).

رابعاً: (الشخصية: هي تلك السمات والانساق الفردية الثابتة نسبياً؛ والتي تبلورت عبر الزمان على شكل نمط يميز الفرد عن غيره).

(١) الخرائج والجرائح: ج٢ ص٥٤٤.

(٢) الكافي: ج٥ ص٤.

وسيأتي الحديث عن الكثير من مفردات هذه التعاريف بإذن الله تعالى.

بين المدرسة البيولوجية والمدرسة السلوكية

ولقد اختلف العلماء في محددات السلوك الإنساني إلى مدارس، أبرزها مدرستان ـ وستأتي الإشارة لاحقاً إلى بعض المدارس الأخرى ـ : وهما المدرسة البيولوجية، والمدرسة السلوكية.

أما المدرسة البيولوجية فهي التي ترى أن المحدد الرئيس للسلوك الإنساني ولصناعة شخصيته هو المورّثات أو الجينات الوراثية والوراثة، ولا تأثير لعوامل التربية والبيئة وغيرها في صناعة الشخصية، وتعتبر دراسة حالة التوائم من أقوى أدلتهم على ذلك.

ويرى هؤلاء أنه كما أن الجينات الوراثية هي المسؤولة عن تحديد لون العين والبشرة وشكل الإنسان وحجمه ومختلف أجهزة بدنه فكذلك هي المسؤولة عن شاكلته النفسية وشخصيته السيكولوجية، وأما الاعتراض بأن الأبناء كثيراً ما لا يحملون مواصفات الآباء الجسدية، فكيف بالنفسية، إذ نرى كثيراً من الأبناء يمتلكون لوناً أو شعراً أو هيكلاً يختلف تمام الاختلاف عن آبائهم فقد تكون عيونه زرقاء أو عسلية وعينا الأبوين سوداء مثلاً، فقد أجابوا عنه بأن ذلك من الطفرة الوراثية وأن أحد أجداده كان يحمل تلك الصفات فانتقلت عبر قفزة وراثية لبعض الأحفاد!.

وقد أغفلت هذه المدرسة دور البيئة والتربية تماماً!

أما المدرسة السلوكية فترى أن البيئة لها اليد الطولى في بناء الشخصية[1] وأنها نتاج التفاعل بين الفرد وبيئته، وقد اغفلت هذه المدرسة دور التربية كما

(١) وماذا عن التربية؟

أغفلت دور المورِّثات تماماً!.

ومن الواضح أن وجه الخطأ الأساس في هذه النظريات هو تطرّفها وعدم اعتدالها ونظرتها الاحادية غير الموضوعية للعوامل المؤثرة في بناء الشخصية، فإن كل تلك العوامل وغيرها مما سيأتي تؤثر بدرجة ما، بنحو المقتضي لا العلة التامة، وقد يتم تحييد تأثيرها بطرق مختلفة سيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

مدرسة الطبع ومدرسة التطبّع

ولقد جرى بحث طويل متشابك الأطراف بين أنصار مدرسة الطبع وأنصار مدرسة التطّبع في أن الفيصل الأخير هو الطبع أم التطبع؟ وأن الغلبة، في المراحل الحساسة والمنعطفات الأخيرة، لمن؟

وقد استدل أنصار مدرسة أصالة الطبع وحاكميته بقول مطلق، بأمثال القصة الآتية:

قضية القطط المدرّبة على حمل الشموع

فقد روي أن ملكاً كان من أنصار مدرسة التطبع وأنه الحكم النهائي والفيصل لدى تزاحم الطبع والتطّبع، وكان وزيره الحكيم من أنصار مدرسة الطبع، وكان الملك يرتأي ضرورة تغيير طباع أهل مملكته بقسرهم على التطبع بصفات مضادة ـ ولنفرض أنهم كانوا كرماء مضيافين بالطبع فأراد قسرهم على التطبع بالبخل وكراهة الضيوف ريثما يتحول التطبع إلى طبع غالب، أو لنفرض العكس من ذلك ـ.

وحيث احتدم النقاش بين الملك ووزيره ولم يصلا إلى وجهٍ مقنع للطرفين، ارتأى الملك الاستعانة بسلاح التجربة التجسيدية، وتفتق ذهنه عن التجربة التالية: فقد كلّف بعض الخبراء ـ من مدربي السيرك ـ بتربية مجموعة قطط

على حمل الشموع والوقوف بأدب واحترام على جانبي قاعة الطعام، فقام المدّرب، ولأشهر متوالية، بتدريبها على ذلك بل وعلى الأكثر من ذلك حيث درّبها على أن تقف على طرفي القاعة حاملةً الشموع المضاءة؛ ثم إذ فرشت المائدة الملكية وسط القاعة درّبها على أن تقترب ببطء من المائدة وتقف على طرفيها بهدوء من دون أن تمسّ شيئاً من الأطعمة.

وعندما اكتمل التدريب دعى الملك وزيره للقاعة لكي يرى القطط المدربة مصطّفة على جانبي القاعة حاملةً بأيديها الشموع، ثم أثار دهشته أكثر عندما بسطت المائدة واقتربت القطط بهدوء شديد نحو المائدة لتضيء للحضار مائدة الطعام!.. وهنا قال الملك للوزير: ألا ترى البرهان الواضح على أن التطبع يغلب الطبع؟

ولكن الوزير كان ذكياً حقاً فقال للملك أمهلني يوماً، وأعد التجربة غداً ظهراً، فوافق الملك، وجاء الوزير في الغد ومعه مساعده وهو يحمل كيساً كبيراً مغلقاً بإحكام، وطلب من الملك تكرار التجربة فأمر الملك المدّربَ باصطحاب القطط فوقفت مؤدبةً على طرفي القاعة، ثم لما فرشت المائدة اقتربت بهدوء ووقفت حواليها، وهنا قال الوزير للملك أتاذن لي بأن أقوم بتجربة طريفة تكشف عن بطلان نظريتك؟ فقال الملك ـ وهو واثق تماماً ـ أفعل ما يحلو لك، وهنا أشار الوزير إلى مساعده ففتح رأس الكيس فقفزت منه مجموعة من الفئران المذعورة في وسط القاعة وفيما بين القطط، فما كان من القطط إلا أن رمت الشموع كالبرق الخاطف وانشغلت بمطاردة الفئران المذعورة بسرعة رهيبة، وهنا ابتسم الوزير قائلاً: أرأيت أيها الملك كيف غلب الطبع التطبّع؟!

ولكن الذي نراه أن الرسالة في هذه القضية خاطئة ـ سواء أكانت قصة واقعية أم قصة رمزية ـ وذلك لأن التفصيل هو الأصح فإن الطبع قد يكون راسخاً

وقد لا يكون راسخاً، بل إن الرسوخ على درجات، وكذلك التطبع فإنه على درجات متفاوتة جداً فقد يغلب الطبع التطبع، وقد ينعكس الأمر، وقد يتساويان!!

الشاكلة مرجّح وليست عِلة

بصيرة قرآنية في حقيقة الشاكلة ودورها

الظاهر المستفاد من الآية الشريفة والقرائن العقلية أن الشاكلة مجرد مقتضٍ للعمل على طبقها وليست عِلّة تامة لصدور الأفعال من الإنسان بدون إرادة واختيار، وذلك:

بعض الأدلة العقلية والقرآنية

للقرينة العقلية العامة الحافّة بهذه الآية وسائر الآيات، ولشهادة الوجدان بأن ما يعمله الإنسان من خير أو شرّ فإنما يعمله باختياره وليس مجبولاً أو مجبوراً عليه وأن نفسه أو شاكلته إنما هي داعٍ أو مقتضٍ أو مشوِّق أو محفّز فقط من غير أن يصل إلى درجة الجبر، نعم درجات الداعوية والتحفيز والتشويق مختلفة فقد تكون ضعيفة أو متوسطة أو قوية أو حتى قوية جداً ولكن لا بدرجة تسلب الاختيار.

ويدل على ذلك أيضاً قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[(١)] ولو كان العمل على طبق الشاكلة قسرياً لكان إلهام النفس الفجور والتقوى لغواً بل لما صح إسناد الفجور إليها أصلاً، ولما صح قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[(٢)] و﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[(٣)] بإسناد التزكية والدس للشخص نفسه، بل ويدل

(١) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة الشمس: ٩.

(٣) سورة الشمس: ١٠.

على ذلك مثل قوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] فإن الجزاء لا يعقل على العمل اللاإرادي.

ويدل على ذلك من ظاهر الآية أمور:

الأول: إسناد الفعل إلى الشخص في الآية الكريمة، فإن ظاهر الأفعال عندما تسند للأشخاص كونها عن قصد وإرادة واختيار، فعندما نقول مثلاً: أكرَمَ زيدٌ عمراً، وذهب بكر إلى المدرسة، وبنى المهندس الدار، فإن ظاهرها أنها بإرادة واختيار لا عن قسر مُخرجٍ للفاعل عن حدود الإرادة إلى تخوم الإلجاء بحيث يصدر منه الفعل لا باختيار، وقد جاء في الآية الشريفة: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ﴾ وظاهر ﴿يَعْمَلُ﴾ أنه هو العامل لا أن شيئاً آخر ـ مسمىً بالشاكلة أو غيرها ـ قد صدر عنه الفعل أو أنه عمل بلا اختيار، فإن هذا هو المحتاج للقرينة.

الثاني: إن المتفاهم عرفاً من مثل هذا التركيب هو ذلك؛ ألا ترى أنه لو قال قائل: قل كل فرد في العشيرة يعمل على شاكلة عشيرته، أو كل حزبي يعمل على توجيهات قيادته، أو كل مسلم يعمل على حسب دينه، أو كل مقلد يعمل على فتوى مرجعه، أو كل إنسان يعمل على حسب مزاجه، أفاد أنه يعمل على طبق شاكلة عشيرته أو طبق توجيهات قيادته أو على حسب فتاوى مرجعه وتعاليم دينه، بإرادته لا بقسرٍ مُخرِجٍ له عن حد الاختيار.

الرازي: نظرية اختلاف أفراد البشر بالجوهر والماهية!

وقد ذهب الفخر الرازي إلى أن الآية مما يستفاد منها أن الناس أنواع مختلفة بالماهية والجواهر وأن الأفعال الشريرة الصادرة من الإنسان إنما تصدر منه لأن شاكلته وجوهر نفسه وماهيته شريرة، على العكس من الأفعال الخيرة التي تصدر

(١) سورة يس: ٥٤.

من الإنسان فإنها تصدر منه لأن شاكلته وجوهره وماهيته هي ماهية من نوع آخر وهي شاكلة النور والجوهر.

والحاصل: إنه صرح بأن ماهيات الناس تختلف بالنوع والجوهر وأفاد، بما يشبه التصريح وبما هو لازم كلامه قهراً، بان الأفعال الخيرة والشريرة نتيجة وليدة حتمية للنفوس الخيرة والشريرة بل وكذا الصفات الحسنة كالكرم والشجاعة والفتوة والحمية والتواضع، والصفات السيئة كالجبن والحسد والحقد والحسد وغير ذلك.

قال: (ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال الزجاج: الشاكلة الطريقة والمذهب. والدليل عليه أنه يقال هذا طريق ذو شواكل أي يتشعب منه طرق كثيرة، ثم الذي يقوي عندي أن المراد من الآية ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ وفيه وجه آخر وهو: أن المراد أن كل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه فإن كانت نفسه نفساً مشرقة خيّرة طاهرة علوية صدرت عنه أفعال فاضلة كريمة وإن كانت نفسه نفساً كَدِرة نذلة خبيثة مضلة ظلمانية صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة.

وأقول: العقلاء اختلفوا في أن النفوس الناطقة البشرية هل هي مختلفة بالماهية أم لا؟ منهم من قال: إنها مختلفة بالماهية وإن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهياتها، ومنهم من قال: إنها متساوية في الماهية واختلاف أفعالها لأجل اختلاف أمزجتها.

والمختار عندي هو القسم الأول والقرآن مشعر بذلك، وذلك لأنه تعالى بيّن في الآية المتقدمة أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة وبالنسبة إلى أقوام آخرين يفيد الخسارة والخزي ثم أتبعه بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ ومعناه أن

اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال كما أن الشمس تعقّد الملح وتليّن الدهن وتبيّض ثوب القصّار وتسوّد وجهه.

وهذا الكلام إنما يتم المقصود منه إذا كانت الأرواح والنفوس مختلفة بماهياتها فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال)[١].

الفطرة والوجدان والبرهان والقرآن، تكذّب النظرية

أقول: كلامه ليس بالصحيح في حد ذاته، وليس استنباطه من الآية صحيحاً أيضاً.

أما أولاً: فلأن دعوى: (إن اختلاف النفوس الناطقة البشرية هو إختلافٌ بالماهية وإن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهياتها) تكذّبها الوجدان والفطرة كما يدرك العقل المستقل بطلانها؛ وذلك لبداهة أن الشجاعة والجبن والكرم والبخل والتكبر والتواضع وغيرها حالات عارضة للإنسان وليس جزء ذاته أو نفس حقيقته، وليس الشجاع أو الكريم أو المتواضع مختلفاً بالجوهر والماهية والحقيقة والذات والذاتيات عن الجبان والبخيل والمتكبر، بل هي اعراض مفارقة؛ ولذا أمكن ان يتحول الشجاع جباناً أو العكس أو الكريم بخيلاً أو العكس.

والحاصل إنه يدل على عدم الاختلاف الذاتي باختلافها، أنها مفارقة غير لازمة مع أن الذات والذاتي لا تختلف ولا تتخلف و("ذاتي شيء لم يكن معللا" حتى عرّف الذاتي بما لا يعلل و العرضي بما يعلل و"كان" خاصته الأخرى أنه "ما يسبقه تعقلا. وكان أيضا بيّن الثبوت له" إذا تعقل ذلك الشيء بالكنه. "وعرضّيه"

(١) تفسير الرازي: ج٢١ ص٣٦.

أي عرضي الشيء "اعرفن" في كل من المقامات "مقابله")[١]

بل إن بعض الصفات وإن كانت لازمة فإنها تبقى كيفيةً وصفةً وعرضاً من الأعراض ؛ ألا ترى أن العلم كيفية نفسية[٢] وليس ذات الإنسان؟ والبداهة تشهد بأن الجبان لو صار شجاعاً فإنه قد تعاقبت صفتان على نفسه الإنسانية واختلفتا عليه مع وحدته وليس أنه كان نوعاً (كالأسد) فصار نوعاً آخر (كالكلب مثلاً)!.

هذا كله إضافة إلى بداهة أن الرجل والمرأة من نوع واحد وكلاهما إنسان ولكن على كلامه يلزم أن تكون المرأة من ماهية أخرى غير الإنسان! وكذلك يلزم أن يكون الأسود من ماهية أخرى غير ماهية الإنسان الذي هو الأبيض فقط ، فتأمل[٣].

والأدهى من ذلك قوله بأن اختلاف أفعالها إنما هو لاختلاف جواهرها ، إذ يلزمه إضافة إلى ما سبق : أن الإنسان لو عصى الله بغيبة انقلبت ماهيته إلى ماهية أخرى ثم لو أطاع انقلبت ماهيته مرة أخرى ثم لو عصى انقلبت ماهيته مرة ثالثة وهكذا قد تنقلب ماهيته باليوم والليلة مائة مرة أو ألف مرة!

وأما ثانياً : فلأن استظهاره من الآية باطل لأن قوله تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أعم من كون عمله على شاكلته عن اختيار أو اضطرار فإنه صادق على كليهما لو لم نقل باختصاصه بالأول بقرينة إسناد الفعل إليه الظاهر في صدوره عن إرادة وقصد ، وأيضاً : قوله تعالى أعم من كون الشاكلة علّة تام لعمله أو علّة ناقصة ومقتضياً ، فقوله : (وهذا الكلام إنما يتم المقصود منه إذا كانت الأرواح والنفوس مختلفة بماهياتها فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من

(١) شرح المنظومة : ج١ ص١٧٧.

(٢) أو إضافة مقولية أو إشراقية أو انفعال أو غير ذلك ، على الأقوال.

(٣) إذ كلامه عن الصفات والأفعال لا عن غيرها. فتدبر.

القرآن نور على نور وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال) خطأ، إذ هذا الكلام يتمّ أيضاً مع كون النفوس ذات ماهية واحدة وكون اختلاف تأثير القرآن عليها لاختلاف أمزجتها المتكونة بإرادتها وببعض أفعالها[١] على امتداد الزمن، بل يتم أيضاً مع كون النفس حرة مختارة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فلها أن تختار الاستشفاء بالقرآن ولها أن تختار العناد والتعصب، والمرجِّح لكلا الطرفين أمر غير قاسر وهو مختار في الميل لأحدهما: فالمرجح للعناد الأهواء والشهوات وإلقاءات الشياطين مع تقبله لها باختياره، والمرجح للاهتداء العقل والملائكة والتوفيق الرباني الاقتضائي.

وبعبارة أخرى: كما أن قولك (الدواء للشفاء) لا يفيد أنه عِلّة تامة له بل هو مقتضٍ له فكذلك ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] فإنه مقتضٍ لشفائهم ويمكن أن لا يستجيب المؤمن لنداء القرآن فيتحول عليه نقمة ويكون ضاراً به، وكذلك حال الظالم فإن القرآن مقتضٍ ليزيده عناداً وجحوداً لكنه يمكن له أن يستجيب له ويتغير، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٣] كما يشهد لذلك أنه على مرّ التاريخ كان الكفار هم الذين يسلمون إذ كانوا يستمعون إلى القرآن الكريم فيهتدون فقد نزل القرآن على أولئك الكافرين شفاء ورحمة كما أن بعض المسلمين ارتدوا إذ شكّكوا في إعجاز القرآن أو في بعض آياته فكان القرآن عليهم خساراً ونقمة.

والعبرة من ذلك كله والجامع: أن من الحكمة والعقل عندما تعرض

---

(١) ومنها مأكولاتها.

(٢) سورة الإسراء: ٨٢.

(٣) سورة الرعد: ١١.

للإنسان شبهة أو فكرة سمعها أو قرأها ـ كشبهة امتناع الترتب والشبهة العبائية وشبه الجبر وشبهة اختلاف النفوس الإنسانية بالنوع ـ أن يعرضها أولاً على الفطرة والوجدان وصريح العقل وأن يعرضها على الوحي، ثم يلتفت للشبهة فإن أمكنه الجواب عنها فنّياً ـ كما أجبنا ـ فهو، وإلا كان له أن يجيب بأنها شبهة في مقابل البديهة، وعلى أي فإن الشبهة لا يمكن لها أن تضلّه أو تزلّ قدمه أو تشوش عليه رؤيته، فليكن هذا على ذُكر منّا جميعاً خاصة في معترك الأفكار وسُوق مبتدعات الأنظار.

من مكوّنات الشاكلة: العقل الباطن

لقد سبق: أن الشاكلة تتكون من أمور عديدة منها: النية والقصد والعزم كما سيأتي في رواية الكافي، ومنها المزاج، ومنها السجية، ومنها: العقل الباطن أو العقل اللاواعي، ولنشر الآن إلى هذا الأخير إشارة:

العقل الباطن أرشيف ضخم متطور

لقد كان علماء النفس يعتقدون بأن اللاوعي يشكل مخزناً للصور والمسموعات والذكريات بل كان يعدّونه أرشيفاً متطوراً تنطبع فيه كل ما تراه أو تسمعه أو تقرأه، أو تحسه بإحدى الحواس الأخرى الظاهرة أو الباطنة أو يخطر على بالك وتفكر فيه.

والغريب أنهم اكتشفوا أن كل ما تقع عليه العين وإن لم تلتفت له النفس، ينطبع بكل تفاصيله في اللاوعي حتى التفاصيل الدقيقة جداً فلو نظرت إلى غابة كبيرة فإن صورتها تنطبع بكل التفاصيل الدقيقة التي نالها البصر، في اللاوعي وفي منطقة محددة من المخ، ولو تطورت قدرات الإنسان بأنواع من الرياضة الروحية والعقلية أو لو تطور العلم فلربما أمكنه صناعة عقارات وأدوية تمكّن



منطقة الوعي من الإشراف على منطقة اللاوعي وعلى الأرشيف كله وحينئذٍ سيذهل الإنسان لكميّة المعلومات الهائلة التي اختزنها في ذهنه وهو لا يعلم! فهذا كله فيما مضى.

بل هو عنصر فاعل في عمليات صناعة القرار

ولكن ومع تطور علم النفس وعلم الأعصاب والمخ توصل العلماء إلى نتيجة أعظم وهي أن اللاوعي ليس مجرد مخزن ضخم أو أرشيف عظيم أو جهاز متطور لحفظ المعلومات، بل إنه فوق ذلك يقوم بدور نشط في عمليات صنع القرار واتخاذ المواقف، فليس كأي أرشيف آخر مجرد مستودع للصور والذكريات بل إنه يمتلك تأثيراً على الإنسان من حيث لا يدري في صناعة قراراته.

ويتجلى تأثير منطقة اللاوعي أكثر فأكثر عند المنعطفات الخطيرة وفي مواطن الامتحان الصعبة:

النظرة للأجنبية في التلفزيون

فمثلاً: إذا كان الإنسان قد نظر إلى نساء سافرات ولو في التلفزيون، فإن صورهن تنطبع في لاوعيه، ثم إنه إذا تعرض لامتحان معصيةٍ وفاحشة فإن تلك الصور تحفّزه على إرتكابها لا سمح الله، عكس ما لو كان قد ملأ أرشيفه الذهني من صور المشاهد المقدسة والمساجد والحسينيات أو ما إذا كان قد ملأ أرشيفه من صفحات القرآن الكريم أو الصحيفة السجادية فإنها تحفزه على الطهر والاستقامة والنزاهة؛ ولذا كان من المستحب أن يتصفح الإنسان القرآن الكريم ولو من دون أن يقرأه فإن نفس إلقاء نظرة سريعة على صفحاته يكفي لكي تنطبع كاملة في ذهن الإنسان ومن ثمّ فإنها تترك تأثيرها الإيجابي على الإنسان بدرجة أو أخرى عند المنعطفات.

وكشاهد على ذلك نذكر التجربة التالية:

الحقيبة السوداء تؤثر على الإمساك في الإنفاق!

وقد أوضحت تجربة أجريت بجامعتي ستانفورد Stanford ووترلو Waterloo كيف لرؤية حقيبة مكتب أن تزيد من القدرات التنافسية عند المشاركين.

ففي خلال الدراسة قام نصف الطلاب بالجلوس حول طاولة كبيرة موضوع على طرفها الآخر حقيبة ومحفظة جلدية سوداء، والمشاركة في لعبة تقوم على الاستثمار. فيما لعب النصف الثاني من الطلاب حول طاولة موضوع على طرفها الآخر حقيبة ظهر بدلًا من حقيبة المكتب.

وجدت الدراسة أن الطلاب في المجموعة الأولى كانوا أكثر ميلًا للاحتفاظ بأموالهم من الآخرين في المجموعة الثانية. حيث إن رؤية الحقيبة - وإن لم يتم ملاحظتها داخل العقل بشكل واعٍ - قد ولدت داخل الأفراد الروابط المتعلقة بإدارة الأعمال والتوقعات.

ويمكن لهذا الأسلوب أن يستخدم في حالة المفاوضة مع شخص ما، فبدلاً من المقابلة في قاعة الاجتماعات أو المؤتمرات يفضل الاجتماع في مكان كمقهى حيث يكون الطرف الآخر أقل ميلًا للرفض والهجوم - وذلك ما نقله بعضهم -.

فلسفة استحباب النظر إلى الأب والعالم والكعبة والمصحف

ولذلك كله نجد أن من المستحب شرعاً النظر إلى آل محمد ﷺ وإلى وجه العلماء وكذلك النظر إلى الوالدين كما يستحب النظر إلى الكعبة وإلى المصحف الشريف، وورد: «أَنَّ النَّظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ فِي الْمُصْحَفِ مِنْ غَيْرِ قِرَاءَةٍ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى



آلِ مُحَمَّدٍ عليهم السلام عِبَادَةٌ»[١].

والسرّ في ذلك أن هذه الصور الروحانية عندما تمتلأ بها الذاكرة فإن الوعي الباطن يدفعك للتشبه بها وللحفاظ على القيم والثوابت والأخلاق الفاضلة ولتجنب المعاصي والجرائم، حيث تدفعه لا شعورياً لمحاكاة أعمالهم بل وربما حتى لتقمّص شخصياتهم، وسيأتي حديث أكثر حول ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى.

من عوامل تكوين الشاكلة

وهناك عوامل كثيرة تؤثر في تكوين الشاكلة، وسنقتصر الآن على أحدها[٢] وهو:

منبّهات دُوَين العتبة

والمقصود بـ(العتبة) عتبة الإحساس فإن من الثابت علمياً أن الحواس إنما تلتقط المسموعات والمبصرات وغيرها إذا كانت بين حدّين محصورين، فمثلاً العين لا تبصر من الألوان إلا الأحمر وصولاً إلى البنفسجي فلا تبصر الألوان تحت الحمراء ولا فوق البنفسجية أي إنها تبصر موجات الضوء المحصورة بين طول موجات الضوء الأحمر وهي ٦٢٥ إلى ٧٦٠ نانومتر وطول موجات الضوء البنفسجي وهي ٣٨٠ إلى ٤٢٠ نانومتر.

وكذلك القوة السامعة فإنها لا تسمع إلا الأصوات التي يتراوح تردد موجاتها بين ٢٠ ذبذبة في الثانية إلى ٢٠ ألف ذبذبة في الثانية، فلا تسمع الأصوات إذا كانت أقل من ٢٠ أو أكثر من ٢٠ ألف، عكس بعض الحيوانات كالكلب مثلاً الذي يسمع ما لا نسمعه أبداً لاختلاف تركيبة جهازه السمعي.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٢٠٥.

(٢) وسيأتي الكلام عن العوامل الأخرى، لاحقاً بإذن الله تعالى.

المؤثرات الخفية على الجمهور

وعلى ضوء ذلك بنى علماء النفس والاجتماع في دراساتهم حول سيكولوجية الجماهير وبنى علماء الأعلام نظرياتهم في كيفية التأثير على المشاهد والمستمع عبر استخدام ذكي لمنبِّهات دُوَين العتبة[١]، فهذه المنبهات هي منبهات غير محسوسة لذلك لا يدركها العقل الداعي كي يحكم عليها بالسلب أو الإيجاب بل تصل إلى العقل الباطن مباشرة فتفرّ من حكومة العقل الواعي عليها.

والسرّ في الأمر: أن المنبهات لو كانت حسية، كصورة امرأة متكشفة، فإن الوعي الظاهر يتخذ منها موقفاً بعد أن يصنفها في خانة الرذائل أو المحرمات أو خادشات الحياء مثلاً، لذا يقلّ تأثيرها اللاشعوري على الإنسان، ولكن الصورة إذا دخلت إلى اللاوعي عبر ما هو دون مساحة الحس فإن العقل الواعي لا يمكنه أن يصنفها إذ لم تمرّ عبره بل كانت قد دخلت للعقل الباطن مباشرة وهي غير مصنفة فتثير في الإنسان الشهوة البهيمية من حيث لا يدري السبب.

ولذلك كله قام صناع الأفلام في هوليوود وغيرها باستغلال نقطة الضعف الإنسانية هذه أسوأ استغلال حيث استعانوا بـ(الصورة الخفية) أي بما اثبته العلم من أن الصورة إذا مرت أمام الإنسان بسرعة جزء من مائة جزء من الثانية[٢] فإن الإنسان لا يشعر أنه رآها لكن العين تسجلها كأية كاميرا دقيقة جداً وتنقلها لمنطقة اللاوعي، ولأجل ذلك ولأجل التأثير على الناس وإفسادهم وضعوا في الكثير من الأفلام حتى البريئة منها (كأفلام الطبيعة أو الأفلام العلمية) صوراً خليعة جداً لا ترى بالعين المجردة أبداً أو وضعوا صوراً دعوية معينة كصورة كنيسة رائعة

(١) ودُوَين تصغير دون، والعتبة كما سبق هي عتبة الإحساس

(٢) أو حتى جزء من ثلاثة آلاف جزء من الثانية، كما في بعض التجارب.

أو قسيس يعطف على الفقراء أو غير ذلك.

أما الأثر الخفي لمثل هذه الصور فإنه يتراوح بين الكبير جداً والمتوسط والضعيف وذلك على حسب اختلاف الأنفس ودرجات الحصانة ومراتب ذكر الله وغير ذلك.

بل لقد ضمّنوا أفلام الكارتون، والإعلانات التجارية وشبهها، والملصقات، والعروض المسرحية والتجارية وغيرها، الكثير من الرسائل ـ المكتوبة أو المصورة ـ التي تستهدف التأثير على زوايا خاصة في الفكر البشري أو في العاطفة الإنسانية أو في الأهواء والشهوات أو حتى في المواقف السياسية والاقتصادية والحقوقية، وقد ذكر بعض العلماء:

تأثير صفارة الشرطي لا شعورياً

وتشير الأبحاث أنه عقب خوض الأشخاص لتجارب ضاغطة عانوا خلالها من القلق تلاها شعور بالارتياح عادة ما يستجيبون بإيجابية للطلبات المقدمة لهم؛ ففي تجربة طُلب من أشخاص في الطريق إكمال استبيان، فكان الأشخاص الذين سمعوا صوت صافرة شرطي غير مرئي أثناء عبورهم للشارع أكثر عرضة لإكمال الاستبيان من الآخرين الذين لم يسمعوا الصافرة.

وقد يُعزى هذا إلى أن جزءاً من الدماغ كان مشغولًا بالتفكير في الخطر المحتمل الذي واجهوه مما ترك لهم مجالًا ضئيلًا للتفكير حول الطلب المطروح عليهم ـ وذلك كما ذكره بعضهم ـ.

أقول: ومن النماذج الهامة التي تجري على تلك الشاكلة والتي نحبّذ القيام بها: الاستماع إلى همهمة مناجاة الزوار في المشاهد المقدسة والمساجد والحسينيات، وذلك من المجربات، فإن البعض يقضي وقته في الحرم أو المسجد

وهو يصلي أو يقرأ الأدعية أو شبه ذلك، وذلك حسن ورائع، إلا أن من المحبّذ أيضاً أن يستمع الإنسان ولو لدقائق إلى همهمة الذاكرين والمصلين والباكين وطلّاب الحوائج فإن تلك الأصوات حيث تصل متداخلة غير واضحة فإنها تتسرب إلى العقل الباطن فتؤثر في صناعة الشاكلة الباطنية بتشكيلة منوعة من الأدعية والأذكار والصلوات.

ومن النماذج الطريفة والهامة لتأثير منبِّهات دُوَين العتبة على مشاعر الناس ومواقفهم وقراراتهم، التجربة التالية التي يمكن أن تقوموا بها أنتم مباشرة وهي: أن بعضهم جرب وضع صور كبيرة في غرفة الامتحان لعيونٍ تطل على الطلاب في الصفّ، وقد وجدوا تأثير ذلك على الطلاب كبيراً إذ تراجعت نسبة الغش لديهم إلى درجة كبيرة عن الصفوف الأخرى التي تخلو من عامل الإيحاء النفسي غير المباشر.

وفي تجربة أخرى لوحظ أن غرفة الاجتماعات كانت تعج بالتوتر والصراع بين أعضاء مجلس الإدارة؛ وعند الفحص عن السبب تبيّن أن ثمّتَ صوراً مرعبة كان قد اختارها صاحب القاعة ليزين بها جدران الغرفة فمثلاً إذا علقت في غرفة الاجتماعات أو قاعة المؤتمرات أو الندوات صورة أسد يفترس غزالاً، أو صورة أمواج صاخبة، أو صور عواصف رعدية مرعبة، أو لوحة زلزال مدمر... وهكذا فإن إيحاءات هذه الصور سوف تتسرب لا شعورياً إلى لاوعي المجتمعين وتثير فيهم نوازع البغضاء والعداء والتشاحن والتنافر.

وذلك على العكس مما لو ملأت القاعة بصور إيجابية مشرقة كصورة يَدينِ تتصافحان، أو صورة شفاه مبتسمة أو أزهار تتمايل مع الريح بهدوء وإنسياب.

وفي تجربة أخرى كان هناك صراخ أطفال خفي يصل من بعيد لأسماع

الجمهور في القاعة، وأصوات بكاء وشتائم متبادلة ورغم أنها لم تكن تكاد تتبين ولكن تأثير ذلك كله على الجمهور كان كبيراً حيث أثار فيهم التوتر والتحفز وكان من أكبر عوامل الضغط على أعصابهم.

على العكس مما لو وصلت إلى أسماعهم من بعيد أصوات مرح وضحك وسرور وكلمات إيجابية رائعة محبّبة وطيبة، أو أصوات بلابل وزقيق عصافير حيث يكون التأثير إيجابياً حينئذٍ إلى درجة كبيرة وذلك مما يقرّب ـ بدرجة أو أخرى ـ الطرف الآخر للاستجابة للعروض التي تقدمها له.

بحث تطبيقي

زيارة الأربعين في شاكلة الناس وشاكلة المنتقدين

ولكي يخرج البحث عن كونه تجريدياً، سنقوم ببحث تطبيقي موجز مقارن بين شاكلتين في قضية من أشهر قضايا العصر الحديث وهي زيارة الأربعين.

لقد كشفت زيارة الأربعين وبشكل مذهل عن شاكلة الجماهير الحسينية، كما كشفت عن شاكلة بعض النخبة ذوي النظرة السلبية القاتمة تجاه هذه الظاهرة النادرة الفريدة.

فقد كشفت زيارة الأربعين عن أروع ملاحم كرم الحسينيين وشهامتهم وبطولتهم، بما لا نجد له نظيراً في الكرة الأرضية كلها على امتداد التاريخ الإنساني .. إذ وجدنا ووجد العالم كله عامة الناس، خاصة من الطبقة المستضعفة والمحرومة، يتنافسون على تقديم أفضل ما يمكنهم من خدمات وإطعام وإيواء للملايين من الناس على مدار أيام وأسابيع، وقد يظل الكثير منهم ـ رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً ـ يجمع أمواله درهماً درهماً وفلساً فلساً طوال العام كي يقدم أفضل ما يمكن لزوار أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وتراهم يقدمون كل ذلك

بكل حبّ وتقدير واعتزاز وفخر وتواضع.

والغريب أن ذلك كله يقترن بروح إيمانية أخوية وأنفس كبيرة تتسع، كما لم نشاهده من قبل، لتحتضن بكل حب وإخلاص الغريب والقريب: العراقي والإيراني والهندي والباكستاني والخليجي والأوروبي .. كلهم على نحو سواء وكأنهم جميعاً إخوة من أب وأم .. حتى لقد حيّر ذلك العالم كله إذ لا نجد نظيراً لزيارة الأربعين في مجمل خصائصها ومن حيث المجموع أبداً، حيث تهبّ الجماهير بأكملها سنةً بعد سنةٍ للخدمة والرعاية والإيواء والضيافة دون كلل أو ملل أو فتور أو تراجع.

الزيارة المليونية منظمة من غير منظِّم!

والأغرب أنها زيارة تتميز بكونها منظَّمة من غير منظِّم؛ إذ يشاهد العالم كله الملايين من الناس يتوافدون عبر مسارات وطرق متعددة وفي أجواء مختلفة: مطيرة أو مغبرّة، شاتية أو صائفة حارة أو باردة، عاصفة أو هادئة، ويسيرون لمدة أيام طويلة هانئين آمنين، ويبيتون في الحسينيات والخيم، ويلتقون ويجتمعون ويفترقون، ومع ذلك كله لا ترى إلا الهدوء والسكينة والأخلاق الفاضلة وسعة الصدر والتسامح والوئام، فلا شجار ولا نزاع ولا صراخ ولا مجالس بطالين ولا.. ولا.. ولا..

ولعمرك إن ذلك لمن العجائب! حتى قال بعضهم: كأنّ مسيرة زيارة الأربعين هي الأنموذج المصغّر جداً لحكومة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف إذ الجميع شَهْم كريم، خدوم ودود خلوق، مِعطاء مضحي ومنظم، من غير أن توجد لجان وفِرق وجماعات في أية نقطة على طول الطريق، تتكفل بإدارة ذلك كله! بل تجد الناس كلهم وبأنفسهم، رغم كونهم بالملايين ومن عشرات الدول والعديد من



القوميات، وبوازع داخلي سماوي، يفعلون كل تلك الأعاجيب! فهذه هي شاكلة زوار الأربعين وهذه هي شخصية الحسينيين!

شاكلة الإعلام العالمي المعادي: الزيارة إضرار وخسائر!

ولكن في مقابل ذلك كله: نجد بعض وسائل الإعلام العالمية[1] وبعض المضلَّلين أو الجاهلين، لم يجدوا في هذه الملايين الزاحفة وفي هذه المعجزة التاريخية إلا ما توهموه نقصاً وخطأً فقالوا: إن زيارة الأربعين تعيق النهوض بالاقتصاد الوطني!!، وبأنها تعني ضيافات مجانية لملايين الناس وأنه كان الأجدر أن يأخذ المضيفون أموالاً من ضيوفهم كي يصبوها في تحريك عجلة الاقتصاد الوطني! أو أن يعطوها للفقراء والمساكين والأرامل والأيتام! وأنه من الخطأ أن يعطّل الناس أعمالهم ويترك العمال والموظفون والمزارعون وظائفهم ليقضوها في المشي أياماً إلى كربلاء! ومن الخطأ أن يترك الطلاب مقاعد الدراسة لينشغلوا في ماراثون يستمر أياماً من غير فائدة!

الأجوبة

وفي الجواب نقول: إن زيارة الأربعين هي عبادة أولاً، وهي سياحة ثقافية ثانياً، وهي نزهة روحية ومتنفس متميز ثالثاً، وهي رياضة جسمية رابعاً، وهي دورة تربوية عالمية خامساً، وهي المظهر التجسيدي الأسمى للأمة الواحدة والأخلاق الفاضلة سادساً.

زيارة الأربعين عبادة وقربة وأجر وثواب

أ ـ فهي عبادة: إذ تدل على ذلك الروايات المتواترة الدالة على الأجر العظيم على زيارة الإمام الحسين عليه السلام والذي لا تعدلها في ذلك أية عبادة أخرى، وزيارة

(١) BBC مثلاً في بعض تقاريرها الاخبارية ومقالات كتابها.

الأربعين من مصاديقها، بل قد دلّت عليها بالخصوص روايات عديدة.

منها: ما رُوي عن الشيخ المفيد رحمه الله في المزار والشيخ الطوسي رحمه الله في التهذيب قال: رُوِيَ عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «عَلَامَاتُ الْمُؤْمِنِ خَمْسٌ صَلَاةُ الْخَمْسِينَ وَزِيَارَةُ الْأَرْبَعِينَ وَالتَّخَتُّمُ فِي الْيَمِينِ وَتَعْفِيرُ الْجَبِينِ وَالْجَهْرُ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»(١).

وقد روى الشيخ الطوسي رحمه الله بإسناده عن صفوان الجمال قال: قَالَ لِي مَوْلَايَ الصَّادِقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي زِيَارَةِ الْأَرْبَعِينَ: تَزُورُ عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ وَتَقُولُ السَّلَامُ عَلَى وَلِيِّ اللَّهِ وَحَبِيبِهِ... وَتُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَتَدْعُو بِمَا أَحْبَبْتَ وَتَنْصَرِفُ»(٢).

وفي فضل الزيارة وثوابها روى محمد بن سنان، عن حذيفة بن منصور، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «مَن زارَ قَبرَ الحُسَين عليه السلام للَّهِ وفِي اللَّهِ، أعتَقَهُ اللَّهُ مِنَ النّارِ وآمَنَهُ يَومَ الفَزَعِ الأَكبَرِ، ولَم يَسأَلِ اللَّهَ تَعالى حاجَةً مِن حَوائِجِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ إلّا أعطاهُ»(٣).

وعن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال: «مَن زارَ الحُسَينَ عليه السلام عارِفاً بِحَقِّهِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَوابَ ألفِ حَجَّةٍ مَقبولَةٍ، وألفِ عُمرَةٍ مَقبولَةٍ، وغَفَرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ وما تَأَخَّرَ»(٤).

---

(١) مصباح المتهجد: ٥٥١، عنه الوسائل: ٣ / ٤٢ ح ٢٩ والبحار: ٨٢ / ٢٩٢ ح ٢١، وج ٨٥ / ٧٥ ح ٧. وفي مصباح الزائر: ٣٤٧، والمزار الكبير: ١٤٣ ح ١٧٨ بالاسناد إلى أبي هاشم الجعفري. وأورده في روضة الواعظين: ٢٣٤، ومصباح الكفعمي: ٤٨٩ (حاشية). ورواه في التهذيب: ٦ / ٥٢ ح ٣٧ وفيه: (صلاة الخمسين)، عنه الوسائل: ٣ / ٣٩٦ ح ١ وج ١٠ / ٣٧٣ ح ١، والبحار: ١٠١ / ١٠٦ ح ١٧، وجامع الاحاديث: ٤ / ٩٨ ح ٢٥.

(٢) تهذيب الأحكام: ج٦ ص١١٣ ـ ١١٤.

(٣) وسائل الشيعة: ج١٤ ص٤٩٩.

(٤) الأمالي للطوسي: ص ٢١٤ ح ٣٧٢، بحار الأنوار: ج ٩٧ ص ٢٥٧ ح ١.



وروى الحسين بن علي بن ثوير بن أبي فاخته قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يَا حُسَيْنُ مَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ يُرِيدُ زِيَارَةَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليهما السلام إِنْ كَانَ مَاشِياً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَةً وَحَطَّ بِهَا عَنْهُ سَيِّئَةً حَتَّى إِذَا صَارَ بِالْحَائِرِ كَتَبَهُ اللَّهُ مِنَ الْمُفْلِحِينَ، وَإِذَا قَضَى مَنَاسِكَهُ كَتَبَهُ اللَّهُ مِنَ الْفَائِزِينَ، حَتَّى إِذَا أَرَادَ الِانْصِرَافَ أَتَاهُ مَلَكٌ فَقَالَ لَهُ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ رَبُّكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: اسْتَأْنِفِ الْعَمَلَ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى»[1].

زيارة الأربعين سياحة ثقافية ـ روحية

ب ـ ج ـ وهي سياحة ثقافية وروحية أيضاً: إذ يتعرّف الناس المتوافدون من عشرات من دول العالم، على ثقافة الشعب العراقي وأخلاقه وعاداته وتقاليده، بل يتعرف أهل العالم على ثقافة الحسينيين وأخلاقهم وآدابهم، وعاداتهم وتقاليدهم، كما يستحضرون ملامح الحركة الإصلاحية الكبرى لسيد الأحرار عليه السلام، عبر ما يسمعونه طوال الطريق من المواكب أو الخطباء أو عبر ما يشاهدونه في كربلاء المقدسة من المشاهد المشرفة والآثار الخالدة.

وقد درج المثقفون من شتى بلاد العالم على السياحة الثقافية، حيث تنطلق الألوف من القوافل من الغرب والشرق إلى مصر مثلاً لزيارة الأهرامات وغيرها، أو إلى سامراء لرؤية المرقدين الطاهرين والملويّة وغيرها، أو إلى أصفهان أو غيرها، لمجرّد أن يطلعوا على آثار قديمة أو معالم ثقافة أو حضارة أخرى.

والغريب أن المنتقدين لزيارة الأربعين لا تراهم ينتقدون المليارات التي تصرف في السياحات الثقافية والترفيهية، مع أن الكلام بعينه يجري هنالك إذ يقال: ألم يكن الواجب أن تصرف هذه الأموال في تنشيط الاقتصاد الوطني؟ وفي

(١) تهذيب الأحكام: ج٦ ص٤٣.

بناء المعامل والمصانع؟ وفي تشييد الجسور والأنفاق؟ وفي بناء المساكن للفقراء والمياتم للأيتام؟ وألم يكن من الأفضل أن يخصص أولئك السواح هذه الأوقات للدراسة والمطالعة أو للزراعة أو للتجارة والصناعة أو لشبه ذلك بدل أن يقضوها في التطلّع على أنهر جافة أو جبال شاهقة أو حمامات قديمة؟!

وفي زيارة الأربعين يلتقي الزائرون بزوار كثيرين من شتى البلاد والثقافات في الطرق وفي الحسينيات والخيم وفي النجف الأشرف وكربلاء المقدسة وفي مختلف المدن التي تقع على الطريق كالناصرية والحلة وغيرها، بل ويرى الزوار في مشاهد تجسيدية مباشرة الكثير الكثير من الشعوب الأخرى.. وعلى مدار أيام عديدة.

كما أنها سياحة روحية أيضاً إذ إن هذه الأيام التي يقضيها الزائرون في الطريق إلى كربلاء المقدسة.. وهم في مواجهة مباشرة مع الأرض والسماء والشمس والقمر والشروق والغروب والنجوم والسحب والرياح والأمطار وغيرها، هي أفضل فرصة بل هي أفضل دورة تدريبية للاستجابة الشاملة للآيات الربانية الكريمة التالية:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّه قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۞ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ ۞ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي



سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[١].

زيارة الأربعين سياحة ترفيهية ورياضة بدنية

د ـ هـ ـ وهي سياحة ترفيهية كما أنها رياضة بدنية مميزة أيضاً، فإنها نزهة وترفيه عن النفس، والترفيه ضروري للإنسان لأنه يشكل نوعاً من التنفيس عن الضغط النفسي ويحرّرُ الأعصاب المتوترة طوال العام من ضغطٍ مدمر، ومن الواضح أن السير ليالي وأياماً في هذا الطريق، وفي الهواء الطلق، وفي مواجهة مع الطبيعة مباشرة، ينقل الناس إلى أجواء أخرى روحانية أولاً ومشبعة بالهدوء والسكينة ثانياً ومتزاوجة مع الطبيعة ـ الأم ثالثاً.

ولذلك كانت النزهة شرعاً مستحبة لأن مشاكل الحياة تضغط على الإنسان أشدّ الضغط، وحينئذٍ: فإما أن ينفجر في وجه الآخرين: الزوجة والأولاد والشركاء أو الموظفين أو الجيران أو غيرهم، وإما أن يكبت انفعالاته فيصاب بجلطة في المخ أو بأزمة في القلب!

ومما لا ينبغي أن يخفى: أن الهدف الأسمى من زيارة الأربعين هو التقرب إلى الله تعالى وإحراز رضاه جل اسمه عبر زيارة سيد شباب أهل الجنة عليه السلام والمشاطرة الوجدانية مع شهداء الإنسانية، وهي تمثل نوعاً من الاستحضار الواعي واللاواعي لتلك المعاني السامية طوال أيام من هذه المسيرة الربانية، فهذا أولاً وبالذات، إلا أنها تستبطن أيضاً فوائد أخرى كثيرة رياضية وسياحية ونفسية وغيرها مما ذكرناه فهي كالحج حيث إن هدفه الأكبر ذكر الله لكنه وكما قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ

(١) سورة آل عمران: آية ١٩٠ ـ ١٩٥.

عَمِيقٍ ۞ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾[١].

زيارة الأربعين دورة تدريبية عالمية عملاقة

و ـ كما أنها دورة تربوية عالمية عملاقة لا نظير لها في العالم كله، إذ يعاد تأهيل الناس وتدريبهم العفوي ـ الارتكازي طوال أيام على الصبر على تقلّبات الطبيعة، وعلى تحمّل الآخرين وعلى التسامح وعلى ضبط النفس عن الشهوات، وأيضاً: على استحضار القيم العليا التي جسّدها سيد الشهداء والأحرار عليه السلام، استحضارها في أعماق اللاوعي دائماً وعلى مستوى الشعور الظاهر في كثير من الأحيان؛ إذ تملأ صفحةَ وجود كل زائر مواقفُهُ البطوليةُ الخالدة وثورته السرمدية ضد الظلم والطغيان ومعاني الفداء والإيثار والبطولة والغيرة والحمية ومسيرة الإصلاح الخالدة إذ يقول: «وَأَنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً وَلَا بَطِراً وَلَا مُفْسِداً وَلَا ظَالِماً وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي صلى الله عليه وآله وسلم أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي وَأَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام»[٢].

زيارة الأربعين مظهر تجسيدي مذهل للأمة الواحدة

ز ـ وزيارة الأربعين مظهر تجسيدي نادر بل عديم المثال للأمة الواحدة والأخلاق الفاضلة حيث يتلاحم الملايين من الناس من عشرات الدول وينصهرون في بوتقة إنسانية ـ سماوية واحدة، فترى العراقي يسير جنباً إلى جنب مع الإيراني والهندي والباكستاني والأوروبي والخليجي واللبناني والسوري، وتراهم ينزلون في حسينية واحدة أو خيمة واحدة، ويأكلون من طعام واحد

---

(١) سورة الحج: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٤ ص٣٢٩.

ويعيشون أجواء روحانية ـ معنوية ـ إنسانية واحدة!..

فهذه إذاً هي شاكلة الحسينيين وزوار الأربعين، وفي مقابل ذلك كله نجد شاكلة المنتقدين:

شاكلة الناقد السلبي المتشائم!

والغريب أن شاكلة هؤلاء المنتقدين النفسية والفكرية، لا ترى كل ذلك بل تتغلب عليهم روح السلبية والتشائم وإنكار كل اللقطات الرائعة في كل اللوحات الفنية النادرة!.. وذلك تماماً كمن أراد ابنه أن يصبح طبيباً وصديقه أن يصبح مهندساً وابن عمه أن يصبح أستاذاً في الجامعة، فلم يبصِر في ذلك إلا القبائح وإلا الأضرار والمخاطر!

ولا تُعجز السلبيين والمتشائمين الحججُ والشواهدُ! إذ قد تجده يقول لابنه: كيف تريد أن تكون طبيباً والطب حِرفة خطرة فقد تعمي عين المريض إن غفلت لثانية أثناء إجراء العملية الجراحية! وقد تعطيه دواء ـ خطأً ـ يؤدي إلى إصابته بجلطة قلبية!.. وألف قد وقد! كما قد تجده يقول لصديقه الذي يهدف إلى أن يكون مهندساً: ألا تعلم بأن المهندس قد يخطئ في بعض حساباته ولربما انهارت إحدى البنايات التي هندستَ لها على رؤوس العشرات فقتلتهم فيزجّون بك في السجن ثم يرحلونك إلى المقصلة!

كما قد تسمعه يقول لمن يريد أن يكون استاذاً جامعياً: ألا تفكر أنك قد تفشل ولا تحصل على فرصة العمل فيضيع عمرك الذي صرفته في التعلّم! ثم ألا تفكر أنه قد يتخرج من طلابك أمثال هتلر وصدام؟ وألا تفكر أنهم قد يقيلونك عن عملك لوشاية واشٍ أو شكاية شاكٍ؟ أو أن تتعرض لمضايقات من أساتذة آخرين يحسدونك على موقعك!

إن مشكلة بعض النخبة أن شاكلتهم النفسية ـ سلبية متشائمة، فلا يرى في حديقة الورود إلا الأشواك وفي شهد العسل إلا الغصّة المحتملة عقلياً ولو كانت واحداً بالمليون!

مجموعة أجوبة نقضية

وعوداً إلى استدلالاتهم وإشكالاتهم على البعد العلمي والاقتصادي السلبي ـ فيما يرون ـ لزيارة الأربعين نقول:

إنه بناء على هذا المنطق فيجب:

أولاً: إلغاء كل الضيافات في العالم! لأن الضيافة إطعام مجاني وإضاعة للوقت معاً! فبدل أن تصرف وقتك في إعداد الطعام للضيوف ثم في الجلوس معهم، أصرفه في الدراسة والمطالعة أو في الزراعة والصناعة أو في النهوض بالاقتصاد الوطني! وبدل أن تعطيهم العطاء مجاناً بِعه لهم كي تضخ هذه الأموال في تنشيط دورة الاقتصاد الوطني بدل أن تضيع جهودك عبثاً في ضيافات تحرق الأموال وتتلف الأوقات!!

كما يجب ثانياً: إلغاء المساجد ودور العبادة كلها، إذ لا تشكل إلا إضاعة للوقت وهدراً للجهود؟ فبدلاً من أن تذهب إلى المسجد وتصلي جماعة وبدلاً من أن يستهلك أسبوعياً الملايين الناس في أنحاء العالم المليارات من الساعات من وقتهم الثمين في الذهاب والإياب إلى المساجد وفي استهلاك الوقود ووسائل النقل وفي عرقلة حركة السير في الطرق بمضاعفة الازدحامات المرورية، بدلاً من ذلك يجب أن يجلس هؤلاء ويطالعوا! أو أن يحرثوا أو يزرعوا! أو أن يشيدوا المصانع والمعامل! أو ألف أو و أو!

كما يجب حسب منطق هؤلاء: إلغاء الحج والعمرة المستحبين، بل حتى

الحج الواجب يصبح ذا مفسدة لأنه يستهلك مليارات الدولارات من الحجاج في سفرة لا فائدة منها لاقتصاد بلادهم، كما أنها تضيّع أعمار الملايين من الناس حيث كان من المفترض أن ينشغلوا بدل ذلك ببناء الوطن وإعماره!

إن مشكلة هؤلاء هي أنهم لا يريدون أن يفهموا، أن الإنسان روح وجسد، وعقل وقلب، وفكر وعاطفة، فلا يحسبون إلا الحسابات المادية الضيقة المتأطرة بإطار الجسد المادي فحسب ويغفلون عن الروح والأخلاقيات والمعنويات والعاطفة الإنسانية وغير ذلك!.

مجموعة من الغرائب[1]!

والغريب: أننا لا نجد في الكثير - إن لم يكن أكثر - هؤلاء المنتقدين من يبادر ليبني معملاً أو مصنعاً للفقراء! أو يبني ميتماً لهم! أو مأوى للأرامل والمساكين! رغم أنه قد يتمتع بإمكانات مادية جيدة، ثم تجده يعاتب مئات الألوف من الناس بالقول: لماذا لا تطعمون الفقراء بهذه الأموال التي تطعمون بها الزوار!.. وقد غفل عن أن أكثر الزوار الذين تستضيفهم هذه المواكب هم من الطبقة المحرومة، كما غفل عن أن أكثر المتبرعين هم الفقراء بأنفسهم وكيف يصح أن يعاتب الفقراء على تضحيتهم وعلى أنكم لماذا لا تطعمون الفقراء!

والأغرب: إن هؤلاء النخبة يتصورون أنهم بكتاباتهم النقدية من وراء الأبراج العاجية ينهضون باقتصاد البلد كله مع أننا لم نجد من كثير منهم إلا الاهتمام بالذات وباللذات فقط! كما لم نجد من كثير منهم أية مبادرة اقتصادية واقعية على الأرض!

ثم الأغرب من ذلك كله: إنه كان الأحرى بهؤلاء المنتقدين أن ينتقدوا

(١) إضافة إلى ما سبق منها!

الحكومات بدل أن ينتقدوا الشعوب! فبدل أن ينتقدوا الناس أو الطلاب على ترك المدارس أو الأعمال في هذه الأيام كان اللازم أن ينتقدوا الحكومة على أنها لا تعير بالاً لإرادة الشعب ولا لحاجات الناس الروحية ـ الدينية ـ الثقافية ولرغباتهم وتطلعاتهم فلقد كان من الواجب على الحكومة أن تمنح الموظفين إجازة في هذه الأيام فكما تعطيهم إجازة عن العمل في الصيف وفي مناسبات أخرى فلتعطهم إجازة لمدة خمسة أيام أو عشرة أيام في أيام الأربعين مادامت هذه إرادة الشعب! وكما تعطي لطلاب المدارس عطلة صيفية وإجازة نصف سنوية وشبه ذلك.. فلتكن أيام الأربعين مشمولة بقرار الإجازات مادامت قد اتفقت على زيارة الأربعين إرادة أكثرية الشعب!

وكيف تكون إجازة الموظفين والطلاب أيام الأربعين مضرة بالاقتصاد الوطني ولا تكون إجازات الموظفين والطلاب ثلاث أشهر في الصيف وأسبوعين في وسط السنة.. وأكثر من ذلك.. مضرة بالاقتصاد الوطني!

والغريب أيضاً: إن هؤلاء المنتقدين لا نجدهم يرفعون راية النقد (البناء) في مقابل ظواهر كظاهرة (الفيفا) و(مصارعة الثيران) وغيرها بينما تعلو أصواتهم بنقد زيارة الأربعين!.

تكاليف الفيفا الاتحاد الدولي لكرة القدم!

وتكفي إلقاء نظرة على (الفيفا) لنعرف عمق المفارقة، فقد شهدت الإحصاءات الدولية بأن تكاليف الاتحاد الدولي لكرة القدم في المونديال وصل في بعض السنين إلى حوالي ملياري دولار وثمانية وعشرين مليون دولاراً! وإن أرباحهم التي أعادوا توظيفها في تطوير كرة القدم أو شبه ذلك تجاوزت الأربعة مليارات و٢٢٠ مليون دولار!

فلنقرأ التقرير التالي:

(بلغت تكلفة كأس العالم ٢٠١٤ في البرازيل ٢.٢٢ مليار دولار، بينما تبلغ التوقعات لمونديال روسيا ١.٩٤ مليار دولار، بحسب التقرير المالي للفيفا.

القسم الأول من النفقات هو ميزانية عمل اللجنة المنظمة المحلية وهي (٤٥٣ مليون دولار في ٢٠١٤)، مدفوعة بالكامل من قبل الفيفا في العام المذكور.

أما بالنسبة إلى مونديال ٢٠١٨، ارتفعت مساهمة الفيفا في اللجنة التنظيمية بشكل ملحوظ إلى ٦٢٧ مليون دولار.

الأقسام الأخرى لنفقات الفيفا هي: الإنتاج التلفزيوني (٣٧٠ مليون دولار في البرازيل، ٢٤١ مليون دولار متوقعة في روسيا).

تكاليف إقامة المنتخبات (٤٠ مليون دولار).

تكاليف إعداد المنتخبات والاتحادات الوطنية (٤٨ مليون دولار).

التأمين (٣٢ مليون دولار).

والتعويضات المدفوعة للأندية التي تحرر لاعبيها خلال إقامة المسابقة ٢٠٩ مليون دولار في روسيا مقابل ٧٠ مليون دولار في ٢٠١٤، أي بزيادة قدرها ١٩٩٪).

هذا كله من جهة ومن جهة أخرى:

(حققت نهائيات كأس العالم ٢٠١٤ في البرازيل للفيفا دخلاً إجمالياً قدره ٤.٨٢ مليارات دولار شملت حقوق البث التلفزيوني (٢.٤٢ مليار)، وحقوق التسويق (١.٥٨ مليار دولار)، والتذاكر (٥٢٧ مليون دولار)، ورسوم الضيافة (١٨٥ مليون دولار) والترخيص (١٠٧ مليون دولار).

ولا تختلف الأرقام بالنسبة إلى الميزانية المتوقعة في روسيا ٢٠١٨، علماً بأن

الفيفا لم يكشف الأرقام بالتفصيل في التقرير المالي لعام ٢٠١٧).

والخلاصة: إنه (تشكل بطولة كأس العالم التي تنظم مرة كل أربعة أعوام، "الغالبية العظمى من إيرادات" الاتحاد الدولي لكرة القدم (فيفا)، حيث يوفر المونديال عائدات بأكثر من أربعة مليارات دولار، مما يجعل البطولة "منجم ذهب" بالنسبة للفيفا.

هذه العائدات معظمها من حقوق البث التلفزيوني وحقوق التسويق والتذاكر، لأغنى اتحاد رياضي في العالم، في المقابل تبلغ تكاليف إقامة المونديال نحو ملياري دولار.

ويعيد الاتحاد الدولي توزيع أرباحه على المنتخبات المشاركة في كأس العالم، والأندية التي تحرر لاعبيها لخوض غماره، ويعيد استثمار جزء كبير في تطوير كرة القدم من خلال المنح إلى الاتحادات الوطنية). انتهى.

الاتجاه الخاطئ لنقد النخبة!

وهنا نقول: بدلاً من أن يوجه الناقدون لزيارة الأربعين سهام النقد إلى ظواهر مثل الفيفا ومثل برامج مسابقات المصارعات العالمية، ومصارعات الثيران وغيرها. تجدهم يوجهون سهام النقد إلى زيارة الأربعين الحافلة بكل معاني النبل والشهامة والمحبة والإيمان والفضيلة والاخوة الإسلامية والأمة الواحدة.

وبدلاً من أن يعترضوا على الملايين من الناس الذين يضيّعون أوقاتهم في مشاهدة كرة القدم، مع أنها لا تزيدهم علماً ولا ثقافة ولا إيماناً ولا تواضعاً ولا صبراً ولا حلماً ومع أنها لا تبني مصانع للبلاد ولا معامل، ولا تنهض بالزراعة ولا بالصناعة ولا بالعلم ولا بالعمل، بدل ذلك تراهم يحتجون على زوار الأربعين!.

وبدلاً من أن ينتقدوا الفيفا ومن ورائها دول العالم على صرف ٤٥٣ مليون دولار على اللجنة المنظمة للمباريات فقط، بدل أن يصرفوها على الفقراء والمساكين، تراهم ينتقدون زوار الأربعين!

وبدل أن يقودوا حملة عالمية للضغط على الفيفا وغيرها لكي تخصص الأربعة مليارات دولار لبناء الجسور والأنفاق والمعامل والمصانع والمساكن والميانم، تراهم ينفقونها على تطوير كرة القدم! وعلى الأندية التي تحرر لاعيبها خلال إقامة المسابقة وشبه ذلك!! قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[1] و﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2].

تعدّد القراءات والاجتهادات وقاعدة الإمضاء، في ضوء آية الشاكلة

على ضوء آية الشاكلة، يمكننا أن نقوم بدراسة مدرستين كلاميتين هامتين إضافة إلى قاعدة فقهية مهمة جداً وهي:

الأولى: مدرسة تعدد القراءات.

الثانية: مدرسة فتح باب الاجتهاد وشرعية تعدد الاجتهادات.

الثالثة: قاعدة الإمضاء والإلزام.

والفرق بين الثلاثة: أن تعدد القراءات أعم من تعدد الاجتهادات، وتعدد الاجتهادات إنما هو داخل الإطار أما تعدد القراءات فقد يكون خارج الإطار بل قد لا يحكمه إطار، وقد فصلنا البحث عن ذلك في كتاب (نقد الهرمينوطيقا) وأما قاعدتا الإمضاء والإلزام فهما قاعدتان فقهيتان وقد يلتزم بهما ـ مطلقاً أو في الجملة ـ من يقول بغلق باب الاجتهاد أو بعدم صحته رأساً كما قد يلتزم بها من

(١) سورة النجم: ٢٢.

(٢) سورة الحجر: ٧٢.

يقول بفتحه وتعدد الاجتهادات.

الاستدلال بـ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ ومعانيها

وهذه الآية الشريفة قد يدعى دلالتها على بعض أو كل تلك النظريات أو المدارس الثلاث، وذلك بوجوه خمس:

أ- ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ تشريعاً

الوجه الأول: أن يقال بأن المراد من ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ أي أن له أن يعمل على شاكلته تشريعاً، أي شرّعنا لكل منكم أن يعمل على شاكلته، فإذا كان ذلك هو المراد فذلك تصحيح، ولو ظاهري، لكل القراءات والاجتهادات أو لما لم ينصرف عنها.

ولكنّ هذا المعنى بعيداً جداً عن ظاهر الآية إذ ظاهرها الإخبار لا الإنشاء، وظاهرها الإخبار عن أن كلّاً يعمل على شاكلته تكويناً اقتضاءً، لا تكويناً قسراً وجبراً، أي أن من طبيعة كل إنسان أن تجري جوارحه على ما انطوت عليه جوانحه أي أنه يعمل بجوارحه على حسب ما تقتضيه شاكلته النفسية والفكرية: فالحسود يعمل على طبق مقتضى حسده، والغضوب والحقود والشهواني والصّبور والشجاع والجبان والكريم والبخيل .. الخ كل تكون أفعاله على حسب شاكلته النفسية، كما أن الرأسمالي أو الاشتراكي أو الشيوعي، وكذا المسلم واليهودي والمسيحي والبوذي والملحد، كل منهم يعمل على حسب شاكلته الفكرية والاعتقادية فينبعث في أفعاله عما انطوى عليه مكنون ضميره وعن شاكلة معتقداته وأفكاره.

وذلك كله على نحو الاقتضاء لا العِلّية لوضوح أن الحسود أو الحقود أو الغضوب ليس مجَبراً على أن ينتقم أو أن يدمِّر أو أن يضرب أو يخرِّب، بل إنه قد

يتحكم في أعصابه ويسيطر على غضبه ومقتضيات حقده وحسده فلا يتصرف بما يشين ولا يزين، بل قد يتصرّف على العكس تماماً من مقتضى حسده أو حقده أو غضبه، وكذلك الشجاع والجبان والكريم والبخيل والعنيف والمسالم فإننا نرى من أنفسنا أن هذه الصفات والشواكل وإن ولّدت في أنفسنا الميل نحو مقتضياتها لكنها لا تبلغ درجة الجبر والقسر والإلجاء، بل تبقى إرادتنا هي الحاكمة أولاً وأخيراً.

ب ـ تخلقوا بأخلاق اللّه في صُنعِهِ للشواكل

الوجه الثاني: أن يقال: بأنه مادام الله تعالى قد صنع الشواكل النفسية ولو في الجملة، فعلينا أن نقتدي به إذ ورد في الحديث: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ» ومن أخلاق الله تعالى أنْ خلق الناس على شواكل مختلفة، إذ من الوجداني أن بعض الأطفال بل الرضّع[1] شجاع أو كريم أو ذكي أو عميق النظرة، وبعضهم جبان أو بخيل أو غبي أو سطحي النظرة أو منعزل أو اجتماعي أو خجول او جُربزي.

ولكنّ هذا الوجه غير تام:

أما أولاً: فلأن «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ» لم يرد في أحاديثنا، حسب التتبع، ولا في أحاديث العامة، بل قيل إنه من كلمات بعض الصوفية، وقد ورد في البحار ولكن لا بعنوان رواية بل كجزء من كلام أحد العلماء[2].

وأما ثانياً: فلأن أخلاق الله تعالى على قسمين:

الأول: ما ثبت حسنه للخالق والمخلوق وذلك كـ: الغفور، الشكور، الصبور، البَرّ، السلام، النافع، المؤمن.. وهكذا.

الثاني: ما اختص بمقام الالوهية وما لا يليق إلا بشأنه جل اسمه، وذلك

---

(١) بل الجنين كذلك في بطن أمه، كما ثبت علمياً.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج٥٨ ص١٢٩.

كـ(المتكبر، المهيمن) ونظائرها قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] ولا شك في حسن اتصافه تعالى بالتكبر فإنه رداؤه، وبالهيمنة وشبه ذلك فإنه سلطانه، ولكن لا يحسن بالعبد التكبر ولا السعي للهيمنة على الآخرين، كما لا يمكن الاستدلال بكونه تعالى ملكاً على حسن أن نسعى لنكون ملوكاً مثلاً.

ويؤكد ذلك أنه تعالى زيّن للناس حب الشهوات: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2] فهل يحسن بنا أن نزين لهم الشهوات؟ بل وأنه تعالى شأنُهُ فتنةُ البشر: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[3] و﴿الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[4] وقال موسى عليه السلام: «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ»[5] ولا شك في أنه لا يجوز لنا أن نفتن الناس عن دينهم بأن نبني لهم مخامر ومباغي ـ لا سمح الله ـ إلى جوار المساجد والحسينيات، متذرعين بـ«تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ»!

كما أن من أفعاله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[6]

---

(١) سورة الحشر: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٤.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٤) سورة العنكبوت: ١ ـ ٣.

(٥) تحف العقول: ص٤٧٤.

(٦) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.



كما أنه (الضارّ النافع) و(المحيي المميت) ولا يجوز لنا ولا يحسن بنا أن نضرّ أحداً أو نقتل شخصاً، كما أن من أفعاله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾(١) و﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(٢) ولا يجوز لنا ذلك أبداً.

والحاصل: إنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(٣) و﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾(٤).

ثم إنه لو فرض صدور الرواية فلا بد من حملها على الصفات التي ثبت حسنها للعبد وللربّ ولا إطلاق لها لكل خُلُقٍ الهي.

وعلى أي فلا شك أنه تعالى خلق الناس على شواكل، ولا يدل ذلك على حسن أن نجاريه جل اسمه في ذلك فنعطي كل ذي شاكلة ما يقوّي شاكلته بأن نعمل على زيادة القوة الغضبية أو الشهوية في الفرد الشهواني أو الغضوب وبأن نزيد الحسود حسداً والحقود حقداً أو نوّفر لهم الوسائل والآليات التي تزيدهم قدرة على الإيذاء والإفساد مثلاً.

ج ـ ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ فامضوه على عمله!

الوجه الثالث: أن يقال بأن لازم قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ هو: فامضوه على عمله الذي كان على شاكلته.

لكن هذا الاستنباط مما لا يفهمه العرف، بل هو بعيد جداً عن مساق الآية

(١) سورة الإسراء: ٥.

(٢) سورة الإسراء: ١٦.

(٣) سورة الأنبياء: ٢٣.

(٤) سورة الأعراف: ٥٤.

إذ رتبت على ذلك ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾[(١)] لا غير، على أن الأقرب من هذا المعنى هو الوجه الآتي وهو:

د ـ ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ فلا تقسروه!

الوجه الرابع: أن يقال بأن لازم قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ هو: فاتركوه ولا تقسروه على خلاف شاكلته، وقد يُعضد بأن لحوق ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ يؤكد هذا المعنى.

وبعبارة أخرى: إن مفاد الآية: كل شخص يعمل على شاكلته والله أعلم بالأهدى سبيلاً من مختلف الناس الذين يعملون على شاكلتهم، فلِمَ تقسرونهم على خلاف شاكلتهم؟ أي أن قصارى الجزاء والموقف منهم هو: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ وتحويل أمرهم إلى الله تعالى فيكون نظير الجزاء في قضية مسجد ضراراً ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[(٢)] والجزاء هو ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ﴾ فقط إذ قال تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿لا تَقُمْ فيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فيهِ فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرينَ﴾[(٣)].

لكن هذا المعنى وإن احتمل لكنه لا يبلغ درجة الظهور النوعي.

ثم إنه لو استظهرنا هذا المعنى لأفادت الآية قاعدة عامة وكان وِزانها وجَرْيُها ومضمونها مطابقاً لآيات أخرى مثل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ

(١) سورة الإسراء: ٨٤.

(٢) سورة التوبة: ١٠٧.

(٣) سورة التوبة: ١٠٨.

هادٍ﴾[1] و﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[2] و﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[3] و﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[4] فيكون هذا هو الأصل العام ولا يخرج عنه إلا بدليل، فإذا شك مثلاً في أن واجب الدولة الإسلامية إجبار النساء على الحجاب أو الرجال على إطلاق اللحية أو شبه ذلك كان الأصل العدم بل كانت القاعدة استناداً لهذه الآية والآيات الأخرى، عدم الإجبار؛ فتأمل وتدبر.

هـ ـ ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ فلا تحزن!

الوجه الخامس: إن المراد: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ فلا تحزن على ما يفعلون ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ـ لكنها على هذا الوجه لا تدل على إحدى المدارس الثلاث.

المدار في (الفضل) و(الأجر) العمل أم الشاكلة؟ وأيهما المرجع[5]؟

وهذا العنوان يتضمن مسائل ثلاث:

الأول: هل المدار في (الفضل) العمل أم الشاكلة؟

الثانية: هل المقياس في (الأجر) العمل أم الشاكلة؟

الثالث: هل المرجع في (الطريق الأقوم) العمل أو الشاكلة؟

والفضل قائم بذيه، والأجر خارج عن ذاته، وأقومية الطريق سبيله، فهي من وِديان ثلاثة مختلفة.

---

(١) سورة الرعد: ٧.

(٢) سورة الغاشية: ٢١ ـ ٢٢.

(٣) سورة النساء: ٨٠.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٥) هل العمل هو المرجع في الطريق الأقوم أو الشاكلة هي المرجع؟

فلـو تعارضـت الشـاكلة مـع الأعمـال، كمـا لـو كانـت الشـاكلة خبيثـة والأعمـال صـالحة أو العكـس بـأن كانـت الشـاكلة طيبـة والأعمـال خبيثـة فأيهمـا الأفضل؟ وأيهما ذو الأجر الأعظم[١] وأيهما سبيله أقوم؟

وللمسائل الثلاث صورتان: الأولى عقائدية، والثانية: أخلاقية اجتماعية.

فعلـى المستوى العقائـدي يجـري البحـث عـن أن المسـلم أو المؤمن إذا سـاء عملـه، والمخـالف أو الكـافر إذا حسـن عملـه، فأيهمـا الأفضـل عنـد الله تعـالى؟ وأيهما الأحب إليه؟ وأيهما الأرجح ميزاناً؟ وأيهما الأقوم سبيلاً؟

وعلى المستوى الأخلاقي والاجتماعي يقع البحث في أن ذا الشاكلة الخبيثة كالحسود أو الحقود إذا لم تبدر منه أية بادرة عملية بغيضة تجاه المحسـود بـأن سيطر على جوارحه تماماً، هل هو الأفضل أم سليم النفس الـذي يحبك ولكنـه يؤذيك أحياناً أو باستمرار لسبب أو آخر[٢].

وهـذا البحـث علـى كـلا مسـتوييه مـن البحـوث الهامـة الـتي تـرتبط ببحـث الشاكلة والأعمال، ولعلنا نوفق للإجابة ـ مستقبلاً ـ على ذلك علـى ضـوء التـدبر في الآية الشريفة: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَـلُ عَلَى شَـاكِلَتِهِ فَـرَبُّكُمْ أَعْلَـمُ بِمَـنْ هُـوَ أَهْـدَى سَبِيلاً﴾ وسائر الآيات والروايات ذات الصلة بالبحث.

صناعة الشاكلة وبرمجتها

وتنبع أهمية هذا المبحث مـن أن الشـاكلة النفسـية تبـدأ منـذ الطفولـة المبكـرة (بل منـذ كونـه جنينـاً في الـرحم)[٣] ثـم لا تـزال تنمـو وتنمـو بمـرور السـنين، بنحـو

(١) إن كان لأحدهما أجر.

(٢) وفي المثل: من أحبك لاشاك.

(٣) بل حتى في مرحلة الأصلاب! ولعلها تبدأ من عالم الذر بل وعالم الظلال والله العالم.



المقتضي، إلا أن يتدخل عامل خارجي لتغيير الشاكلة: إما لعكس مسارها أو لتجميدها وإيقافها في الحدود التي كانت عليها.

اللص في الطفولة واللص في الوزارة!

فمثلاً: (اللص) في طفولته، مرشحٌ لأن يزداد جشعه وولعه وطمعه في السرقة كلما كبر أكثر فأكثر وكلما توفرت أمامه الفرص لسرقات أكبر فأكبر وأعظم فأعظم.. فإن من يسرق في طفولته بيضة أو دجاجة ثم يسرق في شبابه سيارة أو ساعة فغنه سيسرق إذا صار رئيس شركةٍ الملايينَ وسيسرق إذا صار وزيراً أو رئيس الوزراء مئات الملايين!

ومن الطريف ما نقل إنه مع بداية تأسيس الإذاعة في العراق ابتكر أحد الموظفين خطة شيطانية لسرقة بعض الأموال، حيث كان من برامج الإذاعة تلاوة القرآن الكريم وكان يسبقها بثّ لصوت بلبل يصفّر وكان المسؤول جاهلاً بتفاصيل إعدادات البرنامج، فادعى الموظف إنهم اشتروا بلبلاً ليصفّر قبل أوقات بث القرآن وأنّ تكاليف رعايته وطعامه المميز هي كذا شهرياً!، وظل الموظف يأخذ أموالاً لفترات طويلة من المسؤول الجاهل، على رعاية البلبل وإطعامه، حتى اكتشف بعد حين أنه ما كان إلا تسجيلاً لصوت البلبل يعاد بثه قبل التلاوة، ولم يكن هناك بلبل ولا غيره!

إن هذه الحادثة على صغرها تكشف عن الشاكلة النفسية الخبيثة، ومن البديهي أن من يسرق باسم البلبل المزعوم دراهم فإنه سيسرق أكثر فأكثر كلما ترقى في المنصب أكثر فأكثر.

سُداسي إصلاح الشواكل

والبحث يقع في الطريق المثلى لإصلاح الشواكل السيئة أو للسيطرة عليها بالحدود الممكنة، والطرق كثيرة ويمكن أن نعبر عن بعضها بإنه تجمعها ست

كلمات مستقاة من ست آيات: الأفعال الحسنة، الصِّبغة، التعايش، والتحاور، والتعارف، والتعاون.

١ـ فأما الأفعال الحسنة فقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾[١] و﴿وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٢] و﴿الَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[٣].

٢ ـ وأما المظاهر والصبغة فقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ﴾[٤].

٣ـ وأما التحاور فقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٥].

٤ـ وأما التعارف فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا...﴾[٦].

٥ ـ وأما التعايش فقوله تعالى: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطينَ﴾[٧].

٦ ـ وأما التعاون فقوله تعالى: ﴿وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ﴾[٨] وسنقتصر في الحديث على مدار الآيتين الأوليين، وقد بحثنا الآية السادسة بالتفصيل في كتاب (فقه التعاون على البر والتقوى) وسنعقد

(١) سورة الإسراء: ٧.

(٢) سورة القصص: ٧٧.

(٣) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٤) سورة البقرة: ١٣٨.

(٥) سورة النحل: ١٢٥.

(٦) سورة الحجرات: ١٣.

(٧) سورة الممتحنة: ٨.

(٨) سورة المائدة: ٢.

بإذن الله تعالى لسائر الآيات محاور خاصة فنقول:

بصائر علمية ـ قرآنية في صناعة الشواكل

إن الشاكلة ليست أمراً لا اختيارياً محضاً، بل هي أمر اختياري إما في أصلها أو في بعض مراتبها ودرجاتها أو في بعض تجلياتها، وعلى أي فإن الانبعاث عنها ليس قسرياً، كما سبقت الإشارة إليه، بل هي دافع اقتضائي قوي تارة، وضعيف تارة أخرى، نحو الأعمال المتسانخة مع الشاكلة.

والعوامل التي تؤثر في صناعة الشاكلة كثيرة نشير إلى بعضها بإيجاز وهي: المورِّثات أي الجينات الوراثية، والبيئة الطبيعية[1] والمحيط الاجتماعي، والإيحاء والتلقين، ومؤسسات المجتمع المدني، إضافة إلى: الحوادث والهيئات والظواهر، وسنتحدث عن العوامل الأربعة الأولى في سلسلة من البحوث القادمة بإذن الله تعالى، وقد بحثنا العامل الخامس في كتاب (معالم المجتمع المدني في منظومة الفكر الإسلامي) لذلك سنقتصر الآن على الكلام عن العوامل الثلاثة الأخيرة:

أ ـ الحوادث مفردات في طريق تغيير الشواكل

إن كل حادثة وإن بدت هامشية ولم تستغرق إلا ثانية من الوقت مثلاً فقط فإنها يمكن أن تكون مما يصنع الشاكلة أو مما يعيد تشكيلها وصناعتها، إضافة إلى ما للحادثة الواحدة في حد ذاتها من القيمة الإيجابية أو السلبية الكبيرة؛ ولنضرب لذلك عدداً من الأمثلة:

أ ـ **مسح رأس اليتيم**، فإن هذه الحادثة على بساطتها قد تعيد بناء شاكلة الإنسان ليتحول، بالتدريج، إلى معدن للإيمان والحب لله وفي الله وإلى محطة

(١) كمن يعيش في غابة أو صحراء أو قرية فان كلّاً منهم يختلف عن الآخر كما يختلفون جميعاً عمن يعيش في المدينة.

متنقلة لخدمة الناس.

والروايات الواردة في فضل ذلك مما تذهل الإنسان حقاً، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ يمسح يده عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ تَرَحُّماً لَهُ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ شَعْرَةٍ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١) وذلك أن القيامة مراحل ومنازل ومسالك مظلمة ومهالك، فكل نور إضافي فإنه يشكل سلاحاً جديداً يدخل أرض المعركة لصالح الإنسان منيراً الطريق في أرض الأهوال والمخاطر والمهاوي والشعاب.

وورد أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ تَرَحُّماً بِهِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مرت عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَةً»(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا بَكَى الْيَتِيمُ اهْتَزَّ لَهُ الْعَرْشُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ هَذَا الَّذِي أَبْكَى عَبْدِيَ الَّذِي سَلَبْتُه أَبَوَيْهِ فِي صِغَرِهِ؟ فَوَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَارْتِفَاعِي فِي مَكَانِي، لَا يُسْكِتُهُ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ إِلَّا أَوْجَبْتُ لَهُ الْجَنَّةَ»(٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أَنْكَرَ مِنْكُمْ قَسَاوَةَ قَلْبِهِ فَلْيَدْنُ يَتِيماً فَيُلَاطِفَهُ وَلْيَمْسَحْ رَأْسَهُ يَلِينُ قَلْبُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ لِلْيَتِيمِ حَقّاً»(٤).

ب. تقبيل يد العالم.

ج. تقبيل يدي الأبوين.

وتقبيل اليد ليس مجرد إعراب عن تقدير واحترام وإكبار وإجلال، بل إنه رمز متجسد للمحبة والوفاء، وهو إلى ذلك مما يصنع الشاكلة النفسية للإنسان حيث إن هذا العمل المتجسد يوحي لا شعورياً إلى منطقة العقل اللاواعي بأن

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١٨٨.

(٢) ثواب الأعمال: ص١٩٩.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١٨٨.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١٨٨.

العلم نور وأن الأبوين رحمة وأن العالم الصالح يجب أن يُقتدى به وأن الأبوين يجب أن يُتّخذا ينبوع عطف وحنان، وأنك كما تتعامل مع والديك يتعامل أولادك معك، وأنك تستمطر رحمة الله بذلك.

د . **تقبيل الأضرحة** والعتبات وجدران المساجد والمشاهد المشرفة وشبه ذلك؛ وهو كذلك إيحاء مركّز لمنطقة الوعي الباطن بأن هذه مراكز طهر وتقوى ومعادن نور وإيمان وان أعمالك كلها يجب أن تصدر عن منطلقات إيمانية تتجانس مع روحانية العتبات المقدسة وقدسية المساجد والمشاهد وقد قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[1].

هـ . **الغضب**، فإن تفجر الغضب في دقيقة واحدة، حادثة واحدة لكنها قد تحرق مستقبل الإنسان كله، وقد ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ فَمَا يَرْضَى أَبَداً حَتَّى يَدْخُلَ النَّارَ فَأَيُّمَا رَجُلٍ غَضِبَ عَلَى قَوْمٍ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ مِنْ فَوْرِهِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ سَيَذْهَبُ عَنْهُ رِجْزُ الشَّيْطَانِ وَأَيُّمَا رَجُلٍ غَضِبَ عَلَى ذِي رَحِمٍ فَلْيَدْنُ مِنْهُ فَلْيَمَسَّهُ فَإِنَّ الرَّحِمَ إِذَا مُسَّتْ سَكَنَتْ»[2] أي إنه قد يغضب من شريكه أو بعض أهله أو حتى من عدوه، فلا يسيطر على قوته الغضبية بل ينساق مع مقتضياتها فتجره من عنف إلى آخر أو من مؤامرة إلى أخرى حتى تدخله النار.. بل إن حالة غضب واحدة قد تدفعه دفعاً إلى اتخاذ موقف جنوني كخنق الطرف الآخر باليد أو تهشيم رأسه بالفأس أو برصاصة من مسدس أو شبه ذلك فيستحق بذلك الخلود في نار جهنم. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ

(١) سورة النور: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) الكافي: ج٢ ص٣٠٢.

مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فيها...﴾[١].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «الْغَضَبُ يُفْسِدُ الْإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ»[٢].

وقال بعض علماء الأخلاق: (الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة إلّا أنها لا تطلع على الأفئدة، وإنها لمستكِنّة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين من قلب كل جبار عنيد، كما يستخرج الحجر النار من الحديد، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن أسعرته نار الغضب، فقد قويت فيه قرابة الشيطان، حيث قال: ﴿خَلَقتَنى مِن نارٍ وَخلَقتَه مِن طِينٍ﴾ فمن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاستعار).

و . **عطر الأجنبية**، وتعطر المرأة لدى الخروج من المنزل بحيث قد يشم رائحتها الأجانب مبغوض لدى الله تعالى، ولا شك أنها إذا قصدت إثارة الأغيار وكانت في معرض الفتنة والريبة كان تعطرها محرماً.

وهذا التعطر مجرد حادثة لكنها تتسلل لا شعورياً إلى كوامن نفس الإنسان فتحوله بالتدريج إلى بهيمة شهوانية تركض وراء اللذة المحرمة لا سمح الله.

تأثير القهوة الحارة أو الباردة على تقييم الآخرين

ولكي يعرف البعض منّا، ممن قد يستسخف ما يراه تهويلاً منّا للحوادث الصغيرة ـ فيما يراها هو ـ فلا بد أن ننقل التجربة العلمية الآتية التي أجراها علماء النفس في جامعة (Yale) حيث كشفت عن عمق تأثير الحوادث مهما كانت جانبية

(١) سورة النساء: ٩٣.

(٢) الكافي: ج٢ ص٣٠٢.

على قناعات الإنسان وتأثيرها على تقييمه للآخرين:

فقد قام العلماء بالتجربة التالية مراراً عديدة على طلاب متنوعين في إحدى المختبرات الحافلة بالعديد من الطلاب الزائرين بغرض التمرين والتدريب؛ والتجربة تبتني على أن يجد الطلاب وهم في طريقهم إلى المختبر، في بعض المرات، موظفاً يحمل كوباً من القهوة بيد ومجموعة من الأوراق والكتب باليد الأخرى وهي تكاد تتساقط منه، فيشير إلى أحدهم طالباً الإمساك بالكوب هنيئة ريثما يعدل من وضع الأوراق والكتب، وقد ابتنت التجربة على تنويع القهوة فتارة تكون ساخنة وأخرى باردة.. والغريب أن تقييم الطلاب الذين أمسكوا بكوب القهوة لذلك الموظف كان مختلفاً تماماً فالطلاب الذين أمسكوا كوب القهوة وكانت باردة في ذلك الشتاء البارد، كان تقييمهم للموظف بأنه بارد انطوائي أناني، والطلاب الذين أمسكوا كوب القهوة وكانت ساخنة كان تقييمهم للموظف إيجابياً وأنه دمث الأخلاق اجتماعي لطيف؛ والتحليل الذي وصل إليه العلماء هو أن كوب القهوة البارد في الشتاء أثّر في انكماش الطالب وتقلص عضلات يده بعض الشيء فسرى ذلك ـ رغم أنه قد يبدو بسيطاً جداً ـ إلى تقييمهم للموظف نفسه، أما من أمسك القهوة الساخنة فقد أحس بانتعاش فانعكس ذلك على تقييمه للموظف نفسه، نظير ما ذكره علماء المنطق من تأثير قبح اللفظ أو جماله على قبح المعنى أو جماله.

والغريب أن بعض شبابنا عندما يستمع إلى مثل هذه التجربة من علماء النفس يراها فتحاً علمياً سيكولوجياً وأمراً مبرهناً علمياً، لكنه عندما يسمح أن «النَّظَرُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ...»[1] أو أن مسح رأس اليتيم كذا وتقبيل يد الوالدين كذا، يستبعد ذلك ويستغربه وقد يرفضه أو قد لا يهتم به أصلاً!

---

(١) الكافي: ج٥ ص٥٥٩.

ب ـ الهيئات شوارع نحو تغيير الشواكل

وأما الهيئات فهي أعظم تأثيراً من الحوادث في بعض الأحيان، ولذلك ورد النهي عن التشبه بالمشركين والكفار، وذلك لما للهيئات من التأثير.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ لَا تَلْبَسُوا لِبَاسَ أَعْدَائِي وَلَا تَطْعَمُوا مَطَاعِمَ أَعْدَائِي وَلَا تُشَاكِلُوا بِمَا شَاكَلَ أَعْدَائِي، فَتَكُونُوا أَعْدَائِي كَمَا هُمْ أَعْدَائِي»(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ»(٢).

ومن نماذج الهيئات

١ . **قصّات الشعر**؛ فلقد انتشرت في المجتمع كالنار في الهشيم قصات الشعر الأجنبية من ألمانية وفرنسية وغيرها، وليس الكلام عن جوازها أو حرمتها، إنما الكلام عن تأثير هذه الهيئة في الشاكلة النفسية للأفراد، فإن تقمّص شكل الآخر مدعاة لتقمص خصاله وسائر عاداته وتقاليده، وليس انتشار هذه القصات أمراً عفوياً، بل هو أمر مخطط له على أعلى مستويات مراكز صناعة القرار لدى الاستعمار؛ ذلك أن علماء النفس لديهم يعرفون جيداً أن التأثير على سائر الأمم قد يبدأ من أمر يبدو حيادياً لا ضرر منه أبداً لكنه يحمل في ذاته بصمة الحضارة الغالبة.

٢ . **حلق اللحية**؛ إن الالتحاء للمؤمن وقار وزين، والحلق تشبه باليهود والكفار وقد ورد في الروايات العديدة النهي عنه، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) وسائل الشيعة: ج١٥ ص١٤٦.

(٢) نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة ٢٠٧.

«حُفُّوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحى وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»[(١)].

٣ . **ربطة العنق**؛ وليس الكلام عن الحرمة كما سبق، بل عن مظهر حضارة تريد أن تحكمك حتى في كيفية ملابسك!

ج ـ الظواهر مظاهرات اجتماعية لتغيير الشواكل النفسية

وبعد ذلك يأتي دور الظواهر الاجتماعية ـ السوسيولوجية، فإنها تملك التأثير الكبير جداً في صناعة الشواكل النفسية ـ السيكولوجية، ومن هنا نجد:

أ ـ إن المواكب الحسينية تعد من أهم الظواهر التي تصنع شاكلة الإنسان أو تعيد صناعته من جديد، المواكب بكل ما تحفل به من ظواهر ومظاهر ومناسك وشعائر، أنها توفر للإنسان الملاذ الآمن والأجواء التي تعبق بالعطر الحسيني المحمدي الأصيل، وهي بذلك توفر له حصانة داخلية ضد الانحراف أقوى بكثير من البعيد عن هذه الأجواء.

ولذلك نجد أن موجات الإلحاد تكتسح الشباب الذين لا يعيشون أجواء الحسينيات والمواكب بشكل أسرع جداً من أولئك الذين تحتضنهم تلك المواكب الحسينية وتشكل لهم الهواء الذي يستنشقونه والملاذ الآمن الذي يستريحون إليه.

ب ـ كما نجد أن لصلاة الجماعة في المساجد أجراً عظيماً جداً، كما لها في حد ذاتها أجر عظيم كذلك.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَتَانِي جَبْرَئِيلُ مَعَ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَبَّكَ يُقْرِؤُكَ السَّلَامَ وَأَهْدَى إِلَيْكَ هَدِيَّتَيْنِ لَمْ يُهْدِهِمَا إِلَى نَبِيٍّ قَبْلَكَ، قُلْتُ: مَا الْهَدِيَّتَانِ؟ قَالَ: الْوَتْرُ ثَلَاثُ رَكَعَاتٍ وَالصَّلَاةُ الْخَمْسُ فِي جَمَاعَةٍ. قُلْتُ: يَا جَبْرَئِيلُ: وَمَا لِأُمَّتِي فِي الْجَمَاعَةِ؟ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا كَانَا

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١٣٠.

اثْنَيْنِ، كَتَبَ اللَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِكُلِّ رَكْعَةٍ مِائَةً وَخَمْسِينَ صَلَاةً.

وَإِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً كَتَبَ اللَّهُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ بِكُلِّ رَكْعَةٍ سِتَّمِائَةِ صَلَاةٍ.

وَإِذَا كَانُوا أَرْبَعَةً كَتَبَ اللَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِكُلِّ رَكْعَةٍ أَلْفاً وَمِائَتَيْ صَلَاةٍ.

وَإِذَا كَانُوا خَمْسَةً كَتَبَ اللَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِكُلِّ رَكْعَةٍ أَلْفَيْنِ وَأَرْبَعَمِائَةِ صَلَاةٍ.

وَإِذَا كَانُوا سِتَّةً كَتَبَ اللَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِكُلِّ رَكْعَةٍ أَرْبَعَةَ آلَافٍ وَثَمَانَمِائَةِ صَلَاةٍ.

وَإِذَا كَانُوا سَبْعَةً كَتَبَ اللَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِكُلِّ رَكْعَةٍ تِسْعَةَ آلَافٍ وَسِتَّمِائَةِ صَلَاةٍ.

وَإِذَا كَانُوا ثَمَانِيَةً كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ أَلْفاً وَمِائَتَيْ صَلَاةٍ.

وَإِذَا كَانُوا تِسْعَةً كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِكُلِّ رَكْعَةٍ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ أَلْفاً وَأَرْبَعَمِائَةِ صَلَاةٍ.

وَإِذَا كَانُوا عَشَرَةً كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِكُلِّ وَاحِدٍ بِكُلِّ رَكْعَةٍ سَبْعِينَ أَلْفاً وَأَلْفَيْنِ وَثَمَانَمِائَةِ صَلَاةٍ.

فَإِنْ زَادُوا عَلَى الْعَشَرَةِ، فَلَوْ صَارَتْ بِحَارُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّهَا مِدَاداً وَالْأَشْجَارُ أَقْلَاماً وَالثَّقَلَانِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ كُتَّاباً لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَكْتُبُوا ثَوَابَ رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ»[1].

ولعل جزء الفلسفة في ذلك أن صلاة الجماعة تعمل على إعادة بناء شخصية الإنسان منذ طفولته، وفي مراحل شبابه، وحتى هرمه وشيخوخته، فهي البحر الإيماني الذي يسبح فيه المؤمن، في مقابل الملاهي والمباغي مثلاً والتي تكوّن البحر الشيطاني الذي يسبح فيه الفاسقون والعياذ بالله.

بصيرة قرآنية عن تأثير الشاكلة على (العمل) أو على (الفهم)

قد يتساءل عن معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ وأنه لماذا اقتصر جل اسمه على (العمل على الشاكلة) ولم يستخدم كلمة أخرى تعمّ

(١) جامع الأخبار: ص٧٦.

(الفهم) وتشمله أيضاً ؛ وذلك لأن الكل يفهم على شاكلته وليس يعمل على شاكلته فقط ، فمثلاً (العدو) يفهم مواقفك وأقوالك وأفعالك بشكل آخر ، في كثير من الأحيان ، فحتى إذا كانت نيتك خدمته والإحسان إليه فإنه قد يترجم أعمالك في ذهنه ويفهمها بشكل سلبي ويؤطرها بإطار من التفسيرات القاتمة ، كما أننا نصنع كذلك فإن مجموعة من الفاسدين أخلاقياً أو من المنحرفين فكرياً أو من أذناب الاستعمار مثلاً لو أسسوا مدرسة أو مستشفى أو حتى ميتماً في بلدنا ، فإننا عادة لا نحسن الظن بهم ، ولا ينبغي أن نحسن بهم الظن ، ولا نفهم ذلك على أساس أنهم إنما يرومون الخدمة وانتشال ابناءنا من الفقر أو البطالة أو الجهل أو المرض ، بل إننا (نفهم) ـ عادة ـ الميتم أو المصنع الذي أسسوه على أنه آلية من آليات القوة الناعمة للسيطرة على أفكار شبابنا وللاستحواذ على مستقبل بلادنا ، مع أنه ليس بالضرورة كلما فعل العدو أو المنافس أمراً أن يكون قاصداً كلَّ ما نفسره به ، لكن ذلك هو طبيعة فهمنا لحركته والذي قد يستند إلى الغلبة أو إلى شواهد سابقة أو إلى الاحتياط والحذر المطلوب في حد ذاته.

وكذلك الحسود أو الحقود فإنه يفسر حتى قيامك له واحترامك له تفسيراً سلبياً قد يكون معاكساً للواقع تماماً لكن شاكلته النفسية وهي الحسد أو الحقد أو غير ذلك تؤثر على فهمه لك ولمواقفك وتصرفاتك .

وعليه : لماذا اقتصرت الآية على ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ مع أن (الكل يفهم على شاكلته أيضاً)؟

ويمكن الجواب عن ذلك بوجهين متعاكسين :

(العمل) هو المظهر الأجلى لتأثيرات الشاكلة

الوجه الأول: إن ذلك وإن كان لكذلك ، لكن العمل خُصَّ بالذكر ، لأنه الوجه الأبرز والمظهر الأجلى لتأثير الشاكلة ، فإن تأثير الشاكلة على الأعمال

الجوارحية ظاهر جلي[1] أما تأثيره على النوايا والأفهام والبواطن الجوانحية فمستتر خفي، فقد اقتصر على العمل لأنه الذي يشهده الكل ويتعرفه بوضوح، عالماً كان أم جاهلاً، حضرياً أم بدوياً، أما الفهم فمما لا يظهر تأثير الشاكلة عليه إلا لذوي الألباب وبالتدبر والتأمل، إضافة إلى أن تأثير الشاكلة على الأعمال أقوى من تأثيرها على الأفهام بمعنى أن الأفهام اعصى على الشواكل من أن تلوِّنها وتوجهها، من الأعمال.

الفهم من مصاديق العمل وليس قسيماً له

الوجه الثاني: ويقع في الاتجاه المعاكس للوجه الأول، وهو أن الفهم هو من العمل وليس قسيماً له في مثل هذا الإطلاق فقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ يشمل الفهم والإدراك أيضاً فكما أنه يعمل بجوارحه على ضوء شاكلته فكذلك هو يفهم على هَدْي شاكلته أيضاً.

وهذا الوجه هو الأرجح ظاهراً لجهتين:

الأولى: ان الفكر والفهم والإدراك، عمل من أعمال الجوانح، كما ان المشي والإبصار والسماع عمل من أعمال الجوارح، ولذلك قال القائل:

والفكر حركة من المبادي ومن مبادي إلى المرادي

فإن الفكر انتقال وحركة من المقدم ـ مثلاً ـ إلى التالي ثم من رفع التالي إلى رفع المقدم أو من إثبات المقدم إلى إثبات التالي.

بل دلت على ذلك بعض الروايات أيضاً، وقد ورد في الكافي الشريف: (عن الإمام الصادق عليه السلام: «... وَالنِّيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ أَلَا وَ إِنَّ النِّيَّةَ هِيَ الْعَمَلُ»، ثُمَّ تَلَا

(١) فالعدو يبطش والخائن يغدر والكريم يجود والبخيل يمسك.. وهكذا

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ﴾ يَعْنِي عَلَى نِيَّتِهِ)[1].

الثانية: إن الآيات السابقة قد تشهد على تعميم العمل إلى الأعم من عمل الجوارح وشموله حتى للصفات النفسية أيضاً، قال تعالى في الآية السابقة على آية الشاكلة: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾[2] ومن الواضح أن اليأس ـ عند الابتلاء ـ صفة نفسية تتبع الشاكلة النفسية للناس فعلى طبق شاكلته النفسية يتلقى المرء ما يمسه من خير أو شر فإذا أنعم الله تعالى عليه أعرض ونأى بجانبه، ولا يراد بالإعراض الإعراض البدني الجارحي فقط ولا النأي الحقيقي ببدنه بل الأعم، إذ إنه يعرض بقلبه عن الله وبنيته عن الإخلاص له وبروحه عن التوجه إليه فبدل أن يشكره على نعمائه ينسى أو يتناسى ويهمل أو قد يعقد نيته على الخضوع والطاعة، فشاكلة الإنسان بما هو هو تقتضي إعراضه بقلبه وبجوارحه عن شكر المنعم وعن الانقياد فكراً وقلباً وقالباً له، كما أن الإنسان شاكلته تقتضي أن يكون يؤوساً قنوطاً عند أي بلاء أصابه.

ثم بعد هذه الآية قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ...﴾ فشاكلة الإنسان اقتضت النأي والإعراض الفكري القلبي كما اقتضت اليأس ـ وهو العمل الذي كان على طبق شاكلته النفسية ـ إضافة إلى النأي والإعراض العملي والتعامل الجوارحي السلبي ضمن دائرة الأعمال الجوارحية.

اقرأ أفكاره عبر قراءة شاكلته

لقد ثبت إنه بحسب نوع الشاكلة يختلف تعاطي الناس مع نِعَم الله أو بلائه بل وفهمهم لها، وإن الشاكلة تترك بصماتها على نوع تفكير الإنسان وعلى كيفية فهمه

(١) الكافي: ج٢ ص١٦.

(٢) سورة الإسراء: ٨٣.

للأحداث والنصوص والمعلومات ـ ولو بنحو المقتضي ـ بدرجة عليا أو دانية، شعورية أو لا شعورية، وقد تكون مسيطَراً عليها أو غير مسيطَر (وكل تلك حالات وأنواع والناس إليها منقسمون)، إذا ثبت ذلك فيتفرع عليه العنوان الآتي وهو: اقرأ أفكار الناس ومواقفهم على ضوء شواكلهم النفسية ولو في الجملة.

وذلك لا يعني بالضرورة خطأ تلك الأفكار أو صوابيتها، بل يعني أن الشاكلة النفسية قد تمنح الأفكار قوةً وقد تزيدها ضعفاً وقد تكون على الحياد غير مؤثرة سلباً ولا إيجاباً؛ وذلك على حسب نوعية الشاكلة فإن كانت الشاكلة شاكلة حسنة مهندسة على أسس سليمة أعطت الأفكار والمواقف شاهد صدق وكانت عامل قوة مساعداً وإن لم يكن نهائياً بالطبع، على العكس مما لو كانت الشاكلة سيئة مبنية على قاعدة قاتمة مظلمة فإنها تتسرب إلى الأفكار كما يتسرب النخر إلى جذوع الأشجار والسوس إلى أنواع الثمار والتلوث إلى مياه الأنهار.

ولنمثل لذلك بأمثلة فقهية واقتصادية وثقافية:

بحث تطبيقي: أنواع الشواكل ومخرجاتها

وهنا سنتطرق إلى بحث تطبيقي هام لأنواع من الشواكل العلمية والاجتماعية والسياسية، مع الإشارة إلى بعض مخرجاتها.

شاكلة الأصولي وشاكلة الأخباري

المثال الفقهي: إن شاكلة الأصولي تختلف عن شاكلة الأخباري، وقد يفهم الأخباري أفكار الأصولي واجتهاداته لا كما هي هي بل على ضوء سوء ظنه العام بالأصولي، والعكس بالعكس تماماً فقد يفهم الأصولي اجتهاد الأخباري على ضوء تقييمه العام لشخصيته العلمية والفكرية والفقهية.

وهذا يعني أن الأصولي إذا أراد أن يقيّم رأي الأخباري في مسألة من

المسائل، فعليه ـ لكي يضمن الدراسة الموضوعية لرأيه على ضوء الآيات والروايات والقواعد ـ أن يلاحظ من جهةٍ كونه أخبارياً وأن منهجه العام قد يكون دخيلاً في استنباطه، كما عليه من جهة أخرى أن يقطع النظر عن كونه أخبارياً ويدرس نظره ورأيه بما هو هو، وذلك أشبه بالجمع بين النقيضين لكنه ليس هو هو، بل المراد أن يدرسه تارة بهذا اللحاظ ثم يدرسه مرة أخرى باللحاظ الآخر، وحينئذٍ وبهذا المجموع المركب يكون أقرب للموضوعية، وكذا حال الأخباري بالنسبة للأصولي.

وكذلك حال الرجعي بالنسبة للثوري وبالعكس وحال الحوزوي بالنسبة للجامعي وبالعكس وحال المثقف بالنسبة للعامي وبالعكس، وحال العادل بالنسبة للفاسق وبالعكس؛ على اختلاف واقعي بين تلك الثنائيات ونظائرها مما قد يحتاج إلى بحث مستقل.

تقييم بعض الأخباريين للفقهاء بأنهم يعملون بالقياس!

ولنضرب مثلاً من مدخلية الشاكلة الأخبارية في تقييم مجموعة من آراء الأصوليين حيث سيثبت لنا بهذا المثال أن شاكلة بعض الأخباريين حيث كانت سلبية تجاه الأصوليين أو تجاه العلماء في البُعد الآتي، لذا فسروا بعض آراء الفقهاء بأنها قياس أو استحسان، مع أنها لدى التجرد عن هذه النظرة العامة القاتمة لم تكن أبداً قياساً ولا استحساناً.

قال في كتاب هداية الأبرار إلى طريق الأئمة الأطهار عليهم السلام: (فأعلم أنه وقع للمتأخرين غفلات وأغاليط، لو ذكرناها لطال الكلام حتى أنهم ربما عملوا "بالقياس والاستحسان والرأي" من حيث لا يشعرون وربما طرحوا الأخبار الصحيحة عندهم، أو ترددوا في العمل بها كذلك.

ونحن نذكر أنموذجاً من ذلك يستدل به على غيره. ويعلم أنه لا نجاة من الحيرة إلا بالتمسك بكلام أئمة الهدى عليهم السلام) و(ومن ذلك: أن أكثر الإلحاقات التي ذكرها المتأخرون داخلة في القياس، نحو ما روي (أن الأرض تطهر أسفل النعل والقدم) فألحقوا به خشبة الأقطع وأسفل العصا وسكة الحرث ونحوها... وكل ذلك قياس لا ينكره إلا من لا يعرف معنى القياس)[1].

الجواب: بل إنهم يعملون بإطلاقات الروايات، لا القياس

وقد أجبنا عن ذلك في بعض المباحث بالتفصيل وأن مستند الكثير من العلماء في التعميم والإلحاق لم يكن القياس أبداً بل كان هو الروايات التي وجدوها ظاهرة في الدلالة على التعميم، ولنقتطف ههنا بعض ما قلناه هنالك:

(النادر العمل بالقياس غفلة، والمعهود التمسك بالإطلاقات

ثانياً: إن عمل الفقهاء بالقياس ـ لو فرض ـ فهو قليل بل قليل جداً بل نادر فلعلك لا تجد بين كل ألف مسألةٍ مسألةً عمل بها الفقهاء بالقياس، والجواد قد يكبو، والذي نضيفه هنا: إن كثيراً من الموارد التي اتهم فيها الفقهاء بالعمل بالقياس ـ أو توهم في حقهم ذلك ـ لم يكن من ذلك أبداً، بل كان مستندهم أدلة أخرى كالإطلاقات والعمومات وسائر الأدلة الاجتهادية أو الأصول العملية العامة، نعم ربما ذكروا الملاك للتقريب لذهن المخالف أو باعتباره مؤيداً لا دليلاً، أو فيما إذا قطعوا به مما يسمى بتنقيح المناط القطعي فيكون المرجع حجية القطع لا حجية الظن القياسي، والقطع حجيته ذاتية كما قالوا ولذا يجب عقلاً على القاطع إتباعه مادام قاطعاً وإن حصل له القطع من منشأ غير عقلائي، غاية الأمر أنه غير معذور لو قصّر في المقدمات.

(١) هداية الأبرار إلى طريق الأئمة الأطهار: ص٣٠٨.

والحاصل: إن الفقيه إذا قطع بالملاك وأولويته في الإلحاقات وغيرها فلا وجه للاعتراض عليه بأنك عملت بالقياس وذلك لأنه ـ فيما يرى ـ قد عمل بالقطع لا بالظن القياسي، نعم يمكن مناقشته لزحزحة قطعه فإن تزحزح وبقي له مجرد الظن بالملاك فإنه حينئذٍ لا يقوم بتعدية الحكم من الأصل إلى الفرع قطعاً إذ يجده قياساً محضاً)[1].

و: (التحقيق: إلحاق خشبة الأقطع بالخفّ إنما هو للإطلاق لا للقياس

أما إلحاق خشبة الأقطع وشبهه فالمستظهر أنه كان مستنداً إلى إطلاق الروايات، لا إلى تنقيح المناط وقياس خشبة الأقطع وغيرها على الخف والرجل، وتوضيحه:

إن الروايات الورادة في مطهرية الأرض، بعضها خاص بالخف أو الرجل فلا تصلح للاستدلال بها على تعميم الحكم إلى العصا وخشبة الأقطع إلا بالقياس كما قيل، ولكن وجه التعميم ليست هذه الروايات بل روايات أخرى مطلقة تشمل كل تلك الملحقات (خشبة الأقطع، أسفل العصا، سكة الحرث ونحوها) بإطلاقها فكان المرجع للتعميم هو إطلاق الرواية لا تنقيح المناط والقياس)[2].

و: (أما الروايات العامة فكثيرة نقتصر على بعضها:

صحيح الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: نَزَلْنَا فِي مَكَانٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ زُقَاقٌ قَذَرٌ، فَدَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقَالَ: «أَيْنَ نَزَلْتُمْ؟»

---

(١) راجع (مقوِّمات الاستنباط ومبادئه وشروطه)، الدرس رقم ١١.

(٢) مقوِّمات الاستنباط ومبادئه وشروطه، الدرس رقم ١١.

فَقُلْتُ: نَزَلْنَا فِي دَارِ فُلَان، فَقَالَ عليه السلام: «إِنَّ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ زُقَاقاً قَذِراً»، أَوْ قُلْنَا لَهُ: إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ زُقَاقاً قَذِراً، فَقَالَ عليه السلام: «لَا بَأْسَ، الْأَرْضُ تُطَهِّرُ بَعْضُهَا بَعْضاً...»[1])[2].

(وجه التعميم قوله عليه السلام «الْأَرْضَ يُطهِّرُ بَعْضُهَا بَعْضاً»

فالاستدلال هو بإطلاق قوله عليه السلام: «الْأَرْضَ يُطَهِّرُ بَعْضُهَا بَعْضاً» والمورد لا يخصص الوارد كما هو من بديهيات الأصول خاصة مع صراحة تعليله عليه السلام في حسن المعلى بن خنيس وما سبقه: «فَلَا بَأْسَ؛ إِنَّ الْأَرْضَ تُطَهِّرُ بَعْضُهَا بَعْضاً» بل ومع إطلاق السؤال في صحيح الحلبي إذ لم يخص السائلُ السؤالَ عن الرجل بل أطلق السؤال عن ما لو كان بينهم وبين المسجد زقاق قذر ومن المعلوم أن الوصول للمسجد عبر الزقاق القذر عام يشمل الحافي والمنتعل واللابس خفاً والممسك بعصا وغير ذلك فتخصيصه بالأولين بلا وجه .. والأقوى من ذلك إطلاق تلك الصحاح وتوضيحه:

إن قوله عليه السلام: «الْأَرْضَ يُطَهِّرُ بَعْضُهَا بَعْضاً» فيمن لصقت برجله نداوة البول كما في رواية المستطرفات أو مشى حافياً على أرض تنجست بماء سال من الخنزير كما في حسن المعلى، أو مطلق من مرّ إلى المسجد وبينه وبين المسجد زقاق قذر كما في صحيح الحلبي، يحتاج إلى بعض التدبر لفهم معناه فبعد وضوح أن المراد من «الْأَرْضَ يُطَهِّرُ بَعْضُهَا بَعْضاً» ليس أن الأرض النجسة تطهّر الأرض المجاورة لها[3] إذ مراد الإمام عليه السلام تطهير رجل المصلي مثلاً، فالمراد أحد أمرين:

---

(١) الكافي: ج٣ ص٣٨.

(٢) (مقوِّمات الاستنباط ومبادئه وشروطه، الدرس رقم ١١).

(٣) على أنه لو عمّه لما أضرّ.

الأول: إن الرِجل يعلق بها التراب النجس عندما يمشي الشخص على الأرض النجسة ثم إنه إذا مشى على الأرض الطاهرة طهّرت الأرضُ الطاهرة الترابَ النجس الذي علق برِجله ثم إن لازم ذلك بحسب ما يفهم من الرواية ومصبّها ـ عرفاً ـ أن الرِجل تطهر بالتبع؛ فإن السؤال بالأساس كان عن طهارة الرِجل لأنه يريد الصلاة بل قد يغفل بعضهم عن التراب أو النداوة نفسها خاصة أنها تجف عادة سريعاً ويمكن إزالة التراب بالنفض ولكن تبقى نجاسة الرِجل.

فإذا كان هذا هو مراد الإمام عليه السلام فالجواب عام إذ التراب اللاصق بخشبة الأقطع والعصا.. الخ مصداق للرواية فتفيد الرواية حكماً عاماً يشمل كل الموارد إذ تصرح بأن الأرض تطهر التراب النجس ويلزمه تطهير محله وهو الرجل أو الخشبة أو غيرهما. فأين التخصيص في الرواية؟ خصوصاً وأن السؤال لا يخصص الجواب، على أن بعضها لم يكن السؤال فيها خاصاً كما سبق.

الثاني: إن المراد من «الْأَرْضَ يُطَهِّرُ بَعْضُهَا بَعْضاً» هو التطهير لنفس المتنجس بالأرض من أول الكلام وبدون التوسيط السابق في الوجه الأول، فكما يقال إن الماء يطهِّر الدم أو البول ولا يقصد به إنه يطهره بل المقصود أنه يطهّر موضعه ـ بعد إزالته أي بعد إزالة عين النجاسة ـ فكذلك عندما يقول عليه السلام: «الْأَرْضَ يُطَهِّرُ بَعْضُهَا بَعْضاً» أي إنها تطهر الموضع الذي أصابته النجاسة، وهو كما ترى عام غير خاص بالرجل والخف وشبهها.

وقد صرح بذلك في جواهر الكلام فلا يتوهم أنه اختراع منّا لتوجيه قياس العلماء خشبة الأقطع ونحوه على الرِجل ونحوها، قال: ...)[1].

(١) (مقوِّمات الاستنباط ومبادئه وشروطه، الدرس رقم ١١).

كيف نقرأ العولمة والليبرلة؟

المثال الاقتصادي: العولمة والليبرلة.

إن شاكلة الاستعمار النفسية والثقافية والتاريخية والاقتصادية، لا شك انها تقف وراء الكثير (إن لم يكن كل) من المواقف والآراء التي تتبناها مؤسساتهم الرسمية ومراكز دراساتهم بل وحتى الكثير من مفكريهم وعلمائهم.

والغريب إن البعض يتعامل بسذاجة مع الأفكار الوافدة من مفكري الغرب أو الشرق، ويتلقاها ببساطة على أنها من بنات أفكار ذلك العالم الذي يتحرى الموضوعية والحق والحقيقة فقط وفقط والذي لا تتدخل العوامل الذاتية ولا الشاكلة النفسية له كجزء من حضارة مهيمنة على العالم، في أصل نظريته أو رؤيته أو فكرته أو في بعض تفاصيلها أو في كيفية عرضها أو في الاستنتاج منها وفي مجمل مخرجاتها.

ولنمثل لذلك بمثال معاصر ملأ أسماع العالم بل إنه هيمن على مجمل السياسات العامة لأكثر الدول طوال عقود من الزمنن فقد رفع الغرب، فيما بدا كونه من منطلقات إنسانية تماماً، راية (العولمة) و(الليبرلة)، وقد بدت هاتان الفكرتان، حسبما طرحتا، غاية في الإنسانية والتقدم والتحضر والإنصاف، ولكن الواقع كان شيئاً آخر تماماً:

العولمة: إنسانية وخدمة وتطوير ونهضة!

فلقد بشرت مراكز دراساتهم وجامعاتهم ومفكروهم وسياسيوهم أيضاً بأن عهود العنصريات والأعراق والقوميات والتفرقة بين بني البشر على أساس الجغرافيا واللون والعقيدة وشبهها قد انتهت وولّت إلى الأبد، وأن العالم كله يجب أن يكون كقرية صغيرة بل كأسرة واحدة وبيت واحد، وإن من أكبر عوامل

تمزيق البشرية وحرمانها، وضع الحواجز الاقتصادية والمالية بين بني البشر؛ وإن من كمال الإنسانية ومن الإنصاف أن تكون البضائع المصنّعة في أي بلد من بلاد العالم متاحةً للجميع بدون ضرائب وجمارك تثقل كاهل المستهلك، ولذلك يجب إلغاء الضرائب على الاستيراد والتصدير أو تخفيضها إلى أقصى حد ممكن.

ثم إن من الواجب أيضاً، خدمةً للبشرية وتطويراً للبلاد النامية، أن ترفع الحواجز التي تحول دون حرية حركة الأيدي العاملة والخبراء والكفاءات ورأس المال وما إلى ذلك، كما أن من صالح الدول الأخرى أن تسمح لنا ببناء المعامل والمصانع فيها وقالوا: إننا بتشييدنا المعامل والمصانع في بلادكم خاصة البلاد الفقيرة، نقدم أكبر خدمة لشعبكم ولاقتصادكم إذ أولاً: نوفر فرص عمل كثيرة للعاطلين من عمّالكم، وثانياً: ندرّبهم ونعلمهم المهارات المطلوبة، وثالثاً: نزيد من النمو العام لاقتصاد بلدكم ونرفع من مستواه بالتدريج من بلد متخلف إلى بلد نامٍ ثم إلى بلد صناعي متطور.

وهكذا نجد أن (العولمة) كما طرحوها وصوروها هي أكثر من رائعة وأن (الاستعمار) ليس كما نتوهم أمراً بغيضاً قاتماً مصاصاً للدماء وللثروات، بل إن الدول العظمى هي الرائدة في خدمة الشعوب الأخرى وتطوير اقتصادها وهي الأحرص على مصالحنا منا نحن!

الوجه الآخر للعولمة: ذراع الاستعمار القوية!

ولكن الواقع مختلف تماماً عن ذلك، إذ لم تكن (العولمة) إلا الذراع القوية التي استهدفت تطوير اقتصادياتهم واستثمار سائر الشعوب ليكونوا الوقود الذي يسرّع حركة قطار حضارتهم وصناعتهم واقتصادهم مع بعض الفتات الضئيل الذي يصل للشعوب الأخرى كمخدّر لها وكرشوة للحكام كي يتجاهلوا النتائج

المأساوية المرّة للعولمة على بلادهم إذ جعلتها الحظيرة الخلفية والبقرة الحلوب التي تدرّ عليهم بدل اللبن ذهباً خالصاً!

ويكفي دليلاً على ذلك أنهم عندما أحسوا بأن العولمة وصلت إلى مرحلة تضر باقتصادياتهم الوطنية أعرضوا عنها بكل وقاحة ورفعوا راية (الحمائية) فاشتعلت الحرب التجارية بين أمريكا ومثل الصين وأوروبا وغيرها.

وموجز القول في الوجه الآخر للعولمة: أن الدول العظمى باقتصاداتها القوية وبالبضائع الوفيرة التي تنتجها فإن أكبر هدف لها كان هو إلغاء أو تخفيف الجمارك والضرائب المفروضة بين بلاد العالم لأنها تريد تصدير الملايين من منتجاتها إلى بلادنا فإذا فَرَضت عليها بلادنا الضرائب كان معنى ذلك تضاؤل قدرة شعوبنا على شراء بضائعهم نظراً لغلائها فمثلاً: لو أنها بيعت بسعر التكلفة ولنفرضها ٨٠ دولاراً مع فارق الربح التجاري ولنفرضه ٢٠ دولاراً لكانت البضاعة بمائة دولار، لكنها مع الضريبة تكون أغلى بكثير إذ تكون ١٥٠ دولاراً أو أكثر أو أقل وهذا يعني، بالمحصلة النهائية، أنهم بدل أن يبيعوا مليار بضاعة (منوعة) بالعام الواحد سيبيعون أقل من ذلك بكثير؛ مما يعني أرباحاً أقل ومما يعني بطالة في بلادهم أكثر ومما يعني تقليص إنتاج معاملهم أكثر.

وفي المقابل تراهم لا يخافون من المعاملة بالمثل من جهة بلادنا، إذ إنهم وإن خففوا أو حتى ألغوا الضرائب على بضاعتنا المصدرة إليهم، حسب الاتفاق على نسبة التخفيف، ولكن الفارق بين صادراتنا إلى بلادهم وصادرات بلادهم إلينا، مذهل إذ تراهم يصدرون ما لا يحصى من البضائع بشتى أنواعها وأسعارها مما تبلغ قيمتها مئات المليارات من الدولارات، ولكننا ما الذي نصنّعه لكي نصدره إليهم؟

ولكن حيث نافستهم الصين وأوروبا مثلاً في التصدير، رفعوا اليد عن

(العولمة) بهذا القدر ورفعوا مقابل ذلك شعار (الحمائية) فاشتعلت الحرب التجارية بين أمريكا وأوروبا من جهة وبين أمريكا والصين من جهة أخرى، والمعركة طويلة مستمرة تحركها ـ بالأساس ـ المصالح الاقتصادية، و(العولمة) سلاح مادام يخدم اقتصاد بلادهم، حتى إذا تحول إلى حبل مشنقة لاقتصادهم اعتبروها الشيطان نفسه!

فهذا كله من جهة ومن جهة أخرى فإن (العولمة) كانت البلسم الشافي لزيادة ثرواتهم وتطوير شركاتهم وتقليص نفقاتها إلى أبعد الحدود، وذلك لأن اليد العاملة في بلادهم مُكلِفة جداً عكس اليد العاملة في البلاد الفقيرة كبعض الدول الأفريقية ودول أمريكا الجنوبية وغيرها فإذا كانت أجرة العامل في أمريكا ثلاثة آلاف دولار ـ مثلاً ـ فإن أجرته في البلاد الفقيرة ثلاثمائة دولار ـ مثلاً ـ أو أقل وهكذا كان من مصالح شركاتهم تأسيس معاملهم ومصانعهم في الدول الفقيرة، والغرض تعظيم المنافع والأرباح؛ لأنهم أولاً سيحصلون على المواد الخام من ذلك البلد رخيصةً جداً ولأنهم ثانياً سيدفعون عُشر الأجور الكلية حينئذٍ فتنخفض التكاليف عليهم بنسبة كبيرة جداً فيكون بمقدورهم زيادة هامش الربح من عشرة بالمائة إلى خمسين بالمائة مثلاً ومع ذلك تبقى البضاعة أرخص بكثير مما لو صنعوها في بلادهم، وبذلك يمكنهم بيع أعداد أكبر جداً من بضائعهم إلى العالم فتزداد الأرباح بشكل مذهل.

لكن ذلك ليس هو الذي يُطرح على الشعوب الأخرى أبداً، بل الذي يطرح:

أولاً: عنوان برّاق كالعولمة وحرية حركة العمال والخبراء ورؤوس الأموال.

ثانياً: عنوان حضاري ـ إنساني آخر وهو: إن تأسيس الشركات في بلادكم خطوة هامة جداً نحو النهوض ببلادكم من الفقر إلى الغنى ومن التخلف إلى

التقدم ومن المجتمع الزراعي إلى الصناعي، مع أنهم ـ وكما سبق ـ يشترون المواد الخام من بلاد الفقراء بأرخص الأثمان وأبخسها ثم يعيدون تصديرها بعد تصنيعها بأضعاف مضاعفة، ولو كانوا حقاً يريدون تقدم هذه البلاد لعلموهم الاكتفاء الذاتي وتأسيس المصانع واستثمار المواد الخام بأنفسهم ثم تصديرها حسب الأسعار المناسبة عالمياً إلى بلادهم وسائر بلاد العالم!

ولكن ومن جهة أخرى: حيث دارت الدائرة عليهم إذ ازدادت نسبة البطالة في بلادهم بذلك وإذ تعلمت بعض الدول الفقيرة سابقاً، كالصين والهند، التكنولوجيا، فعادت تنافسهم في العديد من الصناعات، ارتفعت أصوات الحمائية عالياً ونسوا أو تناسوا القيم الإنسانية العليا التي دفعتهم باتجاه رفع راية العولمة بكل قوة وحماس!.

(حقوق الإنسان) رافعة سياسية ـ حزبية بامتياز!

المثال الثقافي: إن الدارس الخبير لـ(شاكلة) حَمَلَةِ راية حقوق الإنسان في العالم، يكتشف أن كثيراً منهم هم من روّاد الحركة الصهيونية أو اليهود أو الماسونية وشبه ذلك، والغريب أنهم ـ وحسب شاكلتهم النفسية والسياسية والتاريخية ـ يستخدمون منصة (حقوق الإنسان) كقاعدة لإطلاق الصواريخ على الدين الإسلامي وتشويهه في أذهان العالم والمسلمين أنفسهم، إذ تجد أن (حقوق الإنسان) كما يسوّقون لها وينظّرون، يمنحونها اتجاهاً قوياً ينتج، شعورياً ولا شعورياً، في أنفس أهل العالم أن الإسلام هو العدو الأول لحقوق الإنسان: المرأة، الأقليات، الآخر، وغير ذلك.

والغريب أنهم تحت راية حق الإنسان يرفعون شعار حرية المعتقد والرأي والتعبير بكل قوة وبذلك يفسحون المجال للكلام حتى ضد الله تعالى وكافة الرسل

تحت ذريعة أنها حرية مقدسة، ولكنهم لا يسمحون بتاتاً لأي شخص أن يتكلم ضد اليهود والصهيونية بل أن من تجرأ على نقدهم والكلام عليهم فإنه يتهم فوراً بمعاداة السامية والعنصرية وشبهها، ويكون مصيره التشهير أو الفصل من العمل أو التسقيط الاجتماعي أو حتى السجن، ولو بتهم ملفقة أخرى، وهذا يعني أن (حقوق الإنسان) لدى أكثرهم ما هي إلا رافعة سياسية ـ حزبية بامتياز؛ بها تضرب بيد من حديد أعدائك وبها تحمي أعوانك وأحزابك!!

وموطن الشاهد: إن من الحكمة أن يقيّم الإنسان أية فكرة وافدة من مفكر شرقي أو غربي على ضوء قراءة شاكلته النفسية وشخصيته الفكرية والحضارية، ولا يعني ذلك رفض الفكرة أو قبولها فوراً لمجرد أنها من بنات أفكار هذا المفكر أو ذاك، بل يعني أن يضع الإنسان شخصية المتكلم وخلفياته المعرفية والفكرية والنفسية، نصب العين، فلعلها تمنحه فكرة أوضح عن العوامل التي دفعته لاتخاذ هذا الموقف أو لانتهاج هذا المنهج أو لارتضاء هذه النظرية.

موقف العلماء المهادن للظالمين أو الثائر عليهم

المثال السياسي: ولنمثل بمثال آخر هام جداً: وهو أن موقف العلماء على مرّ التاريخ من سلاطين الجور كان مختلفاً جداً على حسب شواكلهم النفسية والفكرية ـ بدرجة أو أخرى ـ، وموطن الشاهد أننا لو وجدنا فقيهاً استند في موقفه المهادن لدولة الظلم والضلال والاستبداد بل والمتعاون معها إلى حدّ ما، إلى الآيات والروايات، أو على العكس من ذلك لو رأينا فقيهاً استند إلى آيات وروايات أخرى في مواقفه الثورية ضد الحكومات المستبدة ودعا إلى إسقاطها بأية طريقة كانت ولو بتقديم قرابين كثيرة ولو من دون وضوح البديل الأصلح نظرياً والمجرب عملياً.

أقول: لو رأينا فقيهاً أو مفكراً من النمط الأول أو الثاني فإنه لا يكفي لتقييم آراءه دراستُها من حيث هي هي فحسب، بل اللازم دراسة شخصيته أيضاً فإذا كان الأول الداعي إلى مهادنة الحاكم الجائر جباناً جداً أو كان الثاني الداعي إلى الثورة ضد الحاكم مهما كلف ذلك، جربزياً ومتهوراً جداً، فإن ذلك يشكل نقطة استفهام في (قراءته) للنصوص وأنه لعل أغفل ـ شعورياً أو لا شعورياً ـ أدلة أخرى معارضة أقوى أو توهم الانصراف من غير وجه له أو لم ير الانصراف رغم وضوح وجهه، أو أنه ـ بدافع من ضغط نفسه ـ رفع المؤيد إلى مستوى الدليل أو خفض الدليل إلى مستوى المؤيد أو شبه؛ ويكفي مثال بئر العلامة الحلي ﵀ شاهداً موضحاً لذلك.

القصف بصواريخ الشبهات وتحطيم المناعة الذاتية

المثال العقائدي: لقد قلت مراراً للعديد من العلماء والمفكرين بأن من الخطأ الكبير أن يطالع حتى العالم والمفكر الشبهات، شبهةً بعد أخرى، بشكل متواتر قبل أن يحلل الشبهة الأولى ويفكّكها ويجيب عنها بعد تفكير مترو وبعد مفاوضة مع سائر العلماء فيما استدعى ذلك، ثم إذا حلّلها وأجاب عنها انتقل إلى مطالعة شبهة ثانية فثالثة وهكذا؛ ولكن من الخطأ الكبير أن يتنقّل الإنسان بين الشبهات وأن يقفز من مطالعة شبهة أو الاستماع إليها إلى شبهة أخرى فثالثة وهكذا من دون أن يعطي نفسه الفرصة لتفكيك الشبهة والجواب عنها، وذلك لأن الحصانة والمناعة في المفكرين والعلماء على درجات، وقد سُمّيت الشبهة شبهةً لأنها تشبه الحق، فلعله يتأثر بتواتر الشبهات عليه ولعله تتزعزع قناعاته من غير وجهٍ حق بل لمجرد أنه عرّض نفسه لموجات التشكيك والشبهات أكثر من مدى طاقته الفكرية والنفسية.. مع أنه كثيراً ما يؤدي ذلك إلى الانجراف والانحراف دفعة

واحدة أو شيئاً فشيئاً.

ومثال ذلك من يعرّض نفسه لأمواج من الفيروسات والبكتيريا والأوبئة والأمراض فإن البدن قد يكون بمقدوره أن يقاوم الفيروس الأول ثم إذا تغلب عليه وارتفعت مناعته يكون أقوى على مواجهة الفيروس الثاني وهكذا، ولكن لو تعرّض البدن في وقت واحد لهجوم أنواع مختلفة من الأمراض والجراثيم فإنه قد لا يتحمل ذلك كله فينهار تحت وطأة الهجوم المتواتر المتواصل؛ وكذلك عالَم الفكر والعقيدة تماماً.

ولا يتوهم أحد أن الضليع في علم الأصول أو الفقه محصّن تماماً من الشبهات، إذ الرسوخ في علم الفقه والأصول أمر والتضلع في علم الكلام والعقائد أو الفلسفة أمر آخر، وقد يكون مستوى الأصولي مثلاً في إحدى هذه العلوم كمستوى سائر الناس، فمن أين تأتيه المناعة والحصانة؟!

بصيرة قرآنية في مكوّنات الشاكلة

ومن البصائر في الآية الكريمة أن (الشاكلة) تستبطن ـ وكما سبق ـ المعاني التالية: النية، الحالة، الملكة، الطبيعة، المزاج، والطريقة والمذهب. وقد سبقت الإشارة بشكل عابر إلى ذلك، والآن سنعرض بعض تفصيل الكلام عن بعضها:

المؤثرات في تكوين الشاكلة واتخاذ القرارات

أولاً: النية، فإن النية هي قائد العمل، وهي التي تهندس اتجاه الإنسان في الحياة، فإن من ينوي أن يصبح طبيباً أو مهندساً أو محامياً أو فقيهاً أو خطيباً أو غير ذلك، فإن نيته تكون هي الدافع الذي يدفعه للمثابرة طوال عشرين عاماً مثلاً كي يصبح كما نوى، والقاعدة تقول (أول الفكر آخر العمل) والتي تعني أن أول ما يفكر فيه الإنسان حين يدخل للجامعة مثلاً هو أن يصبح أستاذاً فيها أو دكتوراً

شهيراً فهذا أولُّ فِكرِهِ لكنه يكون آخر عمله أي أنه بعد سنين من العناء والجهد والمثابرة يصل إلى ما نواه وفكّر فيه أولاً.

وكذلك العادل والفاسق والمؤمن والكافر والمصلح والمفسد والطاغوت والإمام العادل فإن كلّاً منهم يعمل على حسب شاكلته أي على حسب نيته وما عقد عليه ضميره.

وقد صرحت الرواية الشريفة بهذا التفسير للشاكلة، فقد رود في الكافي الشريف: (عن الإمام الصادق عليه السلام ـ وكما سبق ـ: «... وَالنِّيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ أَلَا وَ إِنَّ النِّيَّةَ هِيَ الْعَمَلُ»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ﴾ يَعْنِي عَلَى نِيَّتِهِ)[1]. ومن الواضح ـ وكما أكدنا مراراً ـ إن النية والشاكلة عِلّة مُعدّة للعمل وليست عِلّة تامة فلا يلزم من ذلك الجبر.

ثانياً وثالثاً: الحالة والملكة.

والفرق بين الحالة والملكة أن الحالة إذا ترسخت وتجذرت كانت ملكة، والملكة إذا ضعفت صارت حالة، فإن الصفات حقائق تشكيكية ذات مراتب فإذا كانت المرتبة مرتبةً دنيا أو مرتبة دنيا جداً كانت حالة، والحالة هي التي تزول بسرعة وإلا كانت ملكة؛ ومن أمثلة الملكة العدالة والشجاعة والكرم والسماحة إذا كانت راسخة في النفس.

وأما الحالة فلها نوعان من المصاديق: الأول: الحالات الطارئة التي تعتري الإنسان أحياناً كموجة من الغضب تتملكه لساعات مثلاً وإن كان بالذات حليماً.

الثاني: بداية وصول الإنسان لمرتبة من مراتب الملكات كالعدالة والاجتهاد، أي حيث لم تترسخ في نفسه الحالة بل مجرد ما إذا حظي بالقدر الضعيف الباهت منها والقابل للزوال بسرعة.

(١) الكافي: ج٢ ص١٦.

ولنمثّل ذلك بمثال فقهي لطيف: فإن كثير الشك لا يعتني بشكّه بل يعتبره كالعدم فيتعامل مع صلاته كما لو لم يكن شاكاً، أي إنه (لا شك لكثير الشك) فهذا في كثير الشك بنحو الشك المستقر المشابه للملكة؛ أما كثير الشك لحالة طارئة فهو كمات لو توفي أحد أقربائه فاعترته حالة حزن شديد ليوم أو يومين فكثر شكّه في الصلاة أو اعترته حالة من القلق الشديد أو الغضب الشديد فشك ثلاث مرات في صلاته أو أكثر، أي إذا كان الحزن أو الغضب أو القلق حالة طارئة له لا ملكة متجذرة، وههنا اختلف الفقهاء، فقال بعض إنه من كثير الشك فيلحقه حكمه وقال بعض بأن أدلة كثير الشك منصرفة عنه[1] فذلك من مظاهر اختلاف الحالة عن الملكة.

رابعاً: المزاج، والفرق بين الملكة والمزاج أن الملكة تطلق عادة على الصفات النفسية، أما المزاج فيطلق على الحالات الجسدية أو المادية ككون مزاجه دموياً أو بلغمياً أو صفراوياً.

تأثير النية والملكة و.. على التفكير والاستنباط

والعبرة من ذلك كله: إن النية والمزاج والحالات والملكات تؤثر على اتجاه عمل الإنسان وعلى استقامته أو انحرافه وعلى سلامة قراراته ومواقفه وصوابيتها أو خطأها وخطلها؛ وعليه: فعلى الإنسان، عند التفكير في اتخاذ قرار يتعلق بحياته أو بحياة الآخرين ومستقبلهم وعند ممارسة عملية الاجتهاد، أن يراقب

(١) قال في وسيلة النجاة: (مسألة ١: المرجع في كثرة الشكّ إلى العرف، ولا يبعد تحقّقه فيما إذا لم تخل منه ثلاث صلوات متوالية من الشكّ، ويعتبر في صدقها أن لا يكون ذلك من جهة عروض عارض من خوف أو غضب أو همّ ونحو ذلك ممّا يوجب اغتشاش الحواسّ) وقال السيد الكلبايكاني رحمه الله: (بل المعتبر صدق كونها حالة ثانوية له عرفاً من غير فرق بين أسباب عروضها). وسيلة النجاة: ج١ ص١٨٨.

مزاجه وحالاته فإن كان في حالة خوف أو قلق أو غضب أو حزن أو عصبية أو جوع شديد أو نعاس غالب، فإن ذلك كله يؤثر على سلامة تفكيره وعلى استقامة اجتهاده فعليه أن يتجنب البتّ حينئذٍ في القرارات كما عليه تجنب الفتوى حينئذٍ، بل يجب عليه أن ينتظر ريثما تهدأ نفسه ويصفو مزاجه ثم يعيد التفكير والاستنباط فإذا استقر رأيه حينئذٍ على أمر أو فتوى كانت أبعد عن الخطأ من جهة مؤثرات الأمزجة المتقلبة أو الحالات المتغلبة.

خامساً: الطبيعة، والمقصود بها الطبيعة الإنسانية، وهي أسبق رتبة من الملكة والحالة والمزاج فإن الملكة والحالة أمور اختيارية أما الطبيعة فيراد بها الطبيعة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها ومن ذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[1] فهذه شاكلة الإنسان أي طبيعته التي تؤثر ـ اقتضاءً أو في الجملة ـ على فهمه للأحداث والنصوص وعلى أعماله ومواقفه.

بصيرة قرآنية في الشواكل الأهدى للحق أو خلافها

وقد يقال في قوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ إن المراد من (الأهدى): المهتدين سبيلاً في مقابل الضُّلّال سبيلاً؛ وذلك لأن الأصل في أفعل التفضيل وإن كان اشتراكهما في مبدأ الاشتقاق وتفاضلهما في الدرجات كقولك زيد أعلم من عمرو أي أن كليهما ذو علم لكن زيداً أكثر علماً، أو عمرو أقوى من بكر أو القمر أجمل من النجم وهكذا، إلا أنه قد يتجرد أفعل التفضيل عن معنى التفضيل ويراد به ثبوت الأصل في هذا الطرف وفقدانه في الطرف الآخر كـ﴿الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾[2]، وكقولك: علي عليه السلام أعدل من

(١) سورة المعارج: ١٩ ـ ٢١.

(٢) سورة يونس: ٣٥.

فلان، فإنه لا يراد به أن فلاناً عادل وعلي أعدل منه بل المراد أن علياً عادل وذاك ظالم غير عادل، وعلى هذا فالمراد من الآية هو: فربكم أعلم بمن هو مهتدٍ ممن هو ضال عن سواء السبيل.

والصحيح عدم تجرّده وان الاضلاع أربعة

لكن ذلك غير صحيح، والصحيح هو إبقاء (أهدى) في الآية الشريفة على مقتضى الأصل في أفعل التفضيل إذ لا وجه لرفع اليد عنه إلى التجوز، بل إن إبقاء (أهدى) على الأصل فيها هو الأنفع والأكثر فائدة بل وهو الظاهر من سياق المراد من الآية الشريفة، توضيحه: إن ﴿أَهْدَى سَبِيلاً﴾ تدل بالدلالة المطابقية على الأكثر اهتداء أو الأحسن اهتداء أو الأفضل هداية، وتدل بالدلالة الالتزامية أو بمفهوم المخالفة على معانٍ ثلاث أخرى فتكون الأضلاع التي تشير إليها الآية الكريمة أربعاً:

الضلع الأول: ﴿أَهْدَى سَبِيلاً﴾.

الضلع الثاني: المهتدي إلى سواء السبيل.

الضلع الثالث: الضال سبيلاً.

الضلع الرابع: الأضل سبيلاً.

ويكون المراد بالآية الشريفة بلحاظ ما سبقها: إن كُلَّاً يعمل على حسب شاكلته: أي نيته وحالته وملكته وصفاته الراسخة ومزاجه وغير ذلك مما سبق، والشواكل مختلفة ـ كما هو بديهي ـ بالأنواع وبالدرجات أيضاً، والله تعالى هو المطلع على الخفيات وعلى شواكل كافة الناس بمختلف درجاتها وعلى تشابك أنواعها وتداخلها وتزاحمها ولذلك فإنه الأعلم بالأنواع الأربعة: الأكثر اهتداء والمهتدي والضال والأكثر ضلالة؛ إذ لا يمكن أن يحيط بكل ذلك على حقيقته إلا

المطلع على الشواكل النفسية والروحية والفكرية والجسدية على حقيقتها وعلى حسب درجاتها وأعماقها وأغوارها وتموجاتها أيضاً.

وعلى ذلك: فقد يوجد مرجعان أو قائدان أو رئيسان أو صديقان أو شريكان يبدو لنا أن هذا أفضل من ذاك حيث نظرنا إلى لسان أعماله ومفاد أقواله، لكنّ الله تعالى هو المحيط بشواكلهما فهو الأعلم بالأفضل منهما فلعل من بدا هو الأفضل يكون المفضول أو فاقد الفضل أساساً لأن شاكلته هي التي عليها المدار وبها الاعتبار إذ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1].

ثم إن من الواضح: أن المؤمن المتقي الورع العامل المعطاء أهدى سبيلاً من المؤمن غير العامل، ولكن قد يسأل عن العامل غير المؤمن، والمؤمن غير العامل أيهما أهدى سبيلاً؟ ذلك ما يجيب عنه علم الكلام والعقائد وقد نتكلم حوله في بعض البحوث الأخرى بإذن الله تعالى.

لا توجد صراطات مستقيمة

بصيرة قرآنية: ومن هذه المعادلة (وهي إنه يوجد هناك من هو أهدى سبيلاً ومن هو مهتد ومن هو ضال ومن هو أضل) نكتشف أنه ليست فكرة (الصراطات المستقيمة) صحيحة وسيأتي التوقف عند هذه البصيرة مفصلاً بإذن الله تعالى.

المرجعية لخالق الكون في تشخيص الأهدى سبيلاً

بصيرة قرآنية: إنه مادام أن الله تعالى هو الأعلم بمن هو أهدى سبيلاً، فالمرجعية لا بد أن تكون إليه، فمنه جل اسمه يُعلم الأهدى سبيلاً من المهتدي ومن الضال ومن الأضل، وسيأتي لاحقاً الاستدلال على ذلك عبر الاستناد إلى مفردة (ربكم) في الآية الشريفة كما سيظهر، على أنه من المسلّمات فإن موسى

(١) التهذيب: ج٤ ص١٨٦.

النبي على نبينا وآله وعليه السلام رغم وفور علمه وحدّة ذكائه وقوة فراسته إضافة إلى مقام نبوته إلا أنه كان كما قال القرآن الكريم: ﴿وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ﴾[1].

ولذلك كان اللازم أن يرجع حتى عقلاء البشر وعلماؤهم إليه جل اسمه في تحديد من هو ﴿أَهْدَى سَبِيلاً﴾ من الأصناف الثلاثة الأخرى وذلك كلما أمكن ذلك؛ ولذلك كان أمر النبوة والإمامة بالتعيين من قِبَل الله تعالى لا بانتخاب البشر واختيارهم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

نوافذ معرفية لاكتشاف الأهدى سبيلاً

بصيرة قرآنية: إن الله تعالى تدخّل تارة في تحديد الأهدى سبيلاً مباشرةً، وأخرى فتح نوافذ ومنافذ توصل إلى معرفة ذلك: فأما تدخله مباشرةً فعن طريق إرسال الرسل وتكليمهم أو إنزال الوحي عليهم وتسليحهم بالمعجزات والبيّنات، إضافة إلى تجلّيه لهم بأنحاء من التجليات ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[3] ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً﴾[4].

وأما فتحه للنوافذ المعرفية والمنافذ العلمية فعبر طرق كثيرة أهمها (الآيات)

(١) سورة الأعراف: ١٥٥.

(٢) سورة القصص: ٦٨.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٣.

و(الروايات) ثم (الأفعال).

الآيات والروايات منافذ معرفية وروابط الخلق بالله تعالى

فالآيات والروايات هي من أهم أنواع الروابط بين البشرية وبين الإله العلي القدير وهي المنافذ إلى المعارف والحقائق والدقائق واللطائف والرقائق والطرائف والبطون؛ ولعله يأتي الكلام عنها لاحقاً. ويكفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] فالنافذة المعرفية هي الكتاب مع بيان الرسول ﷺ وشرحه له ولو كان الكتاب مستغنياً عن الشرح والبيان لكان قوله ـ والعياذ بالله ـ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ لغواً، وكذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[2] والآية وإن نزلت في أمر من الحوادث الواقعة لكن العبرة بعموم اللفظ، على أن المناط قطعي، بل يكفي أن النافذة الوحيدة للحوادث الواقعة هم ﴿الَّذينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ ومن وكّلوه ذلك في حدود ما وكّلوه وهم الفقهاء بالله الأمناء على حلاله وحرامه.

وقال الرسول الأعظم ﷺ: «أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا»[3] فمن أراد العلم من غير باب أمير المؤمنين علي عليه السلام ضلّ وزلّ.

وقال علي عليه السلام: «يَاكُمَيْلُ لَا تَأْخُذْ إِلَّا عَنَّا تَكُنْ مِنَّا»[4]؛ إلى غير ذلك.

الأفعال أيضا منافذ لكشف الشواكل

والأفعال هي الأخرى ـ وإن كان بمستوى أخفض ـ من النوافذ التي تكشف، على نحو البرهان الإني، عن الشاكلة النفسية، فمثلاً: من يثور على

---

(١) سورة النحل: ٤٤.

(٢) سورة النساء: ٨٣.

(٣) الأمالي ـ للطوسي رحمه الله ـ: ص٥٥٨.

(٤) تحف العقول: ص١٧١.



زوجته ويعنّفها وقد يسبّها أو يضر بها ـ لا سمح الله ـ لمجرد أنها لم تغسل الملابس أو الصحون أو لم تطبخ هذا اليوم الطعام مع أنها قد تكون مريضة أو متعبة أو مبتلاة بأمر آخر أهم، أو يعاقبها لأن الطعام كان غير ناضج أو قليل الملوحة (ماصخاً) أو شبه ذلك، فإن ثورته تكشف عن شاكلة نفسية طاغوتية ـ بدرجة أو أخرى ـ إذ تحكمت فيها القوة الغضبية بدل الحكمة والرحمة، خاصة وأنه ليس من واجب المرأة شرعاً طبخ الطعام أو كنس الدار أو حتى حضانة الطفل بل لها شرعاً أن تمتنع أو أن تطالب بأجرة المثل على كل ذلك، بل إنها في الواقع هي المتفضلة على الزوج بتكفلها إدارة المنزل في مختلف أبعاده، ومع ذلك وبدل أن يكون أسير إحسانها، تجده متعالياً عليها بل وثائراً ومتنمراً؛ وهذا مثال واضح يكشف عن ظاهرة عامة في أكثر البشر.

وإذا أردنا أن ننتقل إلى مثال آخر أبعد غوراً فإن في عبودية معاوية لبطنه الدلالة كل الدلالة، وتكشف الحادثتان الآتيتان اللتان تفصل بينهما أكثر من ثلاثين سنة عن شاكلته النفسية في عبوديته المطلقة لبطنه، فكيف بسائر أهوائه وشهواته؟!

الحادثة الأولى: إن الرسول ﷺ أرسل إليه يستدعيه في أمر ولكنه لم يستجب متذرعاً بأنه مشغول بالطعام! وببالي أنه بعث الرسول ﷺ إليه مرة ثانية فتعلل بالطعام وسوّف الاستجابة، ولعل ذلك تكرر مرة ثالثة أيضاً، حينئذٍ دعا عليه الرسول ﷺ بقوله: «لا أشبع الله بطنه»[1]؛ والغريب في معاوية سفاهته

---

(١) (وروى مسلم في صحيحه في المجلد الثالث عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ فتواريت خلف باب، قال: فجاء فحطأني حطأة وقال اذهب وادع لي معاوية، قال فجئت فقلت: هو يأكل فقال: لا أشبع الله بطنه) الطرائف: ص٥٠٤.

ومنها أنّ رسول الله ﷺ (دَعَا مُعَاوِيَةَ لِيَكْتُبَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَدَافَعَ بِأَمْرِهِ وَاعْتَلَّ بِطَعَامِهِ، فَقَالَ ﷺ: «لَا أَشْبَعَ اللَّهُ بَطْنَهُ» فَبَقِيَ لَا يَشْبَعُ وَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَتْرُكُ الطَّعَامَ شِبَعاً وَلَكِنْ إِعْيَاءً) بحار الأنوار: ج٣٣ ص٢٠٩.

أقول: والظاهر أن مسلم حرّف الرواية وأسقط منها أن الرسول ﷺ دعاه وأنه تعلل بطعامه.

المطلقـة عكـس مـا يـدعى مـن ذكائـه وفطنتـه، فإنـه لا يخلـو إمـا أن يعتقـد بـأن الرسول ﷺ نبي مرسل من قبل الله، أو يعتقد بأنه مجرد ملك فإن كان يعتقد بأنه رسول ومع ذلك لا يستجيب لأمره بالمجيء متذرعاً بالانشغال بالأكل فهو من أفسق الفساق وأسفه السفهاء وإن كان لا يعتقد بنبوته ويرى أنه مجرد حاكم منتصر وملك فإن من السفاهة المطلقة إهمال أوامر الملك بهذه الطريقة وبهذه الحجة!؛ وعلى أي فإن هذه الحادثة تكشف عن عمق عبوديته لبطنه حتى أنه لم يهتم بإغضاب مثل الرسول الأعظم ﷺ لمجرد الانشغال بشهوة بطنه!.

الحادثة الثانية: ـ وقد نقلناها في بحث آخر ـ إن معاوية استضاف مجموعة فرأوا في مائدته طعاماً فريداً في لطافته، ولما سألوا معاوية عنه تبجح بأنه طعام نادر لا يوجد له نظير على موائد الملوك! وقال: إنه قد أُعِدّ من أمخاخ عشرة آلاف عصفور! وتصوروا المبالغ التي كان يصرفها معاوية من بيت مال المسلمين واليتامى والفقراء والأرامل والبؤساء، على مائدته التي كانت هذه العصيدة إحدى ما تتزين به المائدة! فكم طباخاً كان قد ضم مطبخه؟ وكم صياداً كان يصيد له؟ وكم وكم وكم!

الإشكال على مرجعية الأدلة بتعارضها واختلاف فهمها

وعوداً إلى مرجعية الآيات والروايات نقول: إنه قد يعترض على مرجعية الآيات والروايات بوجود التعارض في بعض الروايات، والتشابه في بعض الآيات، بل والخطأ في إفهام المجتهدين حتى للرواية الواحدة!

الجواب: الحجج النوعية لا تسقط عن الحجية بذلك

والجواب عن ذلك واضح؛ فإن الحجج لا تسقط ـ في بناء العقلاء ـ عن الحجية لوجود احتمال الخطأ في فهم المجتهدين لها أو لتعارض بعض تلك الحجج



مع بعضها الآخر أحياناً أو لوجود متشابهات فيها ؛ ألا ترى أن خبر الثقة حجة لدى كافة عقلاء العالم مع أن الثقة قد يكذب ، إذ ليس هو بمعصوم ، وقد يُخطأ ، ولكنه لا يسقط عن الحجية بذلك إلا لو قام دليل على العكس في مورد خاص؟ وكذلك حال حجية البينة والظواهر إلى غير ذلك.

والحاصل : إن الحجية تتعايش مع احتمال الخلاف ومع تحقق التعارض أحياناً بين بعضها ، غاية الأمر أن المتعارضين ـ لو ثبت تعارضهما ولم يكن هناك جمع دلالي بينهما ـ يتخير بينهما كأصل أولي ـ كما هو المنصور ـ أو يتخير بينهما كأصل ثانوي في الأخبار وإن كان الأصل الأولي سقوطها عن الحجية ـ كما عليه المشهور ـ وهذا إنما يكون لو لم يكن لأحدهما مرجح ؛ وذلك نظراً لروايات الترجيح ثم التخيير بين الخبرين المتعارضين ، المتواترة[1] حسب ما قاله الشيخ الانصاري رحمه الله.

مقارنة بين الرجوع للأطباء والرجوع للفقيه

وبعبارة أخرى : إن بناء العقلاء على أن الظواهر حجة وعلى أن اجتهاد المجتهدين المتخصصين حجة ، ولذا تجدهم يوجبون الرجوع إلى الأطباء مثلاً ولا يجوّزون العدول عن الأطباء بتبرير أنهم كثيراً ما يخطأون أو يتناقضون ، بل يُلزمنا العقل والعقلاء بالرجوع إليهم إلا فيما لو علمنا خطأهم ، والسرّ هو مجموع أمرين :

الأول : إن رأي المتخصصين ـ ومنهم الأطباء ومنهم الفقهاء ـ كاشف نوعي عن الواقع وأنه يغلب معه الظن بالإصابة وهو يتعايش مع احتمال الخلاف فالأخذ به ترجيح للراجح وتركه ترجيح للمرجوح.

(١) صفة لروايات التخيير.

بديل الرجوع للمجتهد هو تحكيم رأي غير المتخصّص

الثاني: إن البديل عن الرجوع إلى المتخصص هو تحكيم آراء العوام في الطب والفقه والهندسة وغير ذلك وهل يعقل قبول ذلك؟ أي هل يقبل عاقل بأن نترك الرجوع للأطباء لأنهم يخطأون ويتناقضون ونرجع بعد ذلك في كافة المسائل الطبية للبقال والعطار والحلاق وسائر من لا اختصاص لهم بالطب؟ أو نلزمهم بالاحتياط وهو المُوقِع في أشد العسر والحرج، على أن وجهه وكيفيته مجهولة في كثير من الأحيان.

والعجيب أن كل مثقف تطرح عليه شبهة تناقض المتخصصين أو خطأهم يرفض الإعراض عنهم ـ عن الأطباء والمحامين والمهندسين.. الخ ـ واللجوء إلى العوام والمشعوذين، ولكنه عندما يصل الأمر إلى التفسير أو علم الكلم أو علم الأصول أو علم الفقه ترى بعضهم يطالب بإلغاء مرجعية المجتهدين لأنهم يخطأون أحياناً ويتناقضون!! وليس مستنده إلا أن الحق كل الحق لكل أحد في أن يحتكم إلى عقله في الفقه والكلام وغير ذلك! مع أن المسألة علمية وليست من دائرة المستقلات العقلية، وذلك كسائر العلوم الإنسانية، حيث المرجع فيها عقلاً هو المتخصص وليس المرجع العقل نفسه فإنه لا ينال المسائل العلمية بذاته بل عبر أدوات الحصول على العلم.

نعم لو ترك ذلك المثقف أعماله وانشغل بالدراسة الحوزوية وأصبح مجتهداً في الفقه أو غيره فله حينئذٍ الاجتهاد في الفقه كسائر المجتهدين، ولكن الغريب أنهم يطالبون بفتح باب الاجتهاد لهم وهم غير مجتهدين! ويطالبون بالاعتراف بحقهم في الاجتهاد في كافة مسائل الدين مع أنهم غير متخصصين!

وكلمتنا واضحة إذ نقول: باب الاجتهاد للدخول إليه مفتوح، كباب

الطب، وعليه: فليتفرغ من يشاء لدراسة الطب أو الفقه وأدرس وليطالع وليحقق حتى يصل إلى مرحلة الاجتهاد ثم بعد ذلك له أن يجتهد في الفقه كما له أن يجتهد في الطب وغيره؛ إنما الإشكال كل الإشكال أن لا يدرس ثم يطالب بمنحه الحق في الاجتهاد والاستنباط في كل مسألة!

إذا تأثر الفهم عن الشاكلة فليس حجة!

ثم إنه يمكننا أن نعرض المسألة والإشكال في إطار أوسع نقول: إن المراد من ﴿يَعْمَلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ إذا كان هو الأعم من يفهم ـ كما قويناه سابقاً ـ فيكون المراد أيضاً أن كلّا يفهم على شاكلته، فكيف تكون أفهام المجتهدين حجة؟ وألا ينتج ذلك ما يذهب إليه الهرمنيوطيقيين؟

الأجوبة

وقد أجبنا عن ذلك بوجوه عديدة في كتاب (نقد الهرمنيوطيقيا) وكان من الوجوه أن أفهام المجتهدين كواشف نوعية، وأن تأثير الشاكلة ليس بنحو العلة التامة بل هو بنحو المقتضي، وأنه مع ذلك فقد قرر الله تعالى مرجعيات وموازين ومقاييس بها يمكننا أن نكتشف مدى سلامة التفكير وتأثره عن الشاكلة أو المحيط وغيرهما وعدمه.

وإليكم مقتطفاً من بعض أهم ما ورد في الكتاب:

(لا معيار موضوعياً لتمييز الحق من الباطل

المعنى الخامس من معاني النسبية: أن يراد أنه حيث لا يوجد معيار موضوعي، لتمييز الحق من الباطل، فإنه لا محيص لنا عن القول بأن كل (الأفهام) و(المعارف) على تعاكسها وتناقضها هي (حق) وهي (صواب)[1].

(١) والصيغة الأكثر تواضعاً لهذه النظرية هي: (حيث لا يوجد معيار... لذا فإننا لا نعرف الحق والباطل من المعارف والعلوم والمعتقدات) وستتكفل الأجوبة: ب، ج، د، و، بتفنيد ذلك، كما توجد أجوبة أخرى في مطاوي الكتاب.

المعيار الموضوعي للتمييز بين الحق والباطل

ويمكن أن تناقش هذه المدرسة من مدارس النظرية النسبية، بالآتي:

أ ـ إنه خلط بين (عالم الثبوت) و(عالم الإثبات)، فهو كقولك: حيث لا (معيار موضوعياً) لتمييز العادل من الظالم، أو الطويل من القصير، أو الحلو من الحامض، أو الليل من النهار، أو العلم من الجهل؛ فالكل إذن (عدول) و(علماء)!! وكل شيء إذن (طويل) و(حلو) أو (نهار)!!

وبعبارة أخرى: (الحقُ حقٌ ثبوتاً) و(الحقيقة هي هي، وعلى ما هي عليه، في الواقع ونفس الأمر) وهذا مما لا يتبدل أو يتغير في عالم (الوجود العيني) ولو فرض أننا فقدنا (التمييز) و(معاييره) في عالم (الوجود الذهني).

ب ـ إنه لا يعقل[1] أن لا يوجد معيار موضوعي للتمييز بين الحق والباطل؛ فإن الكون كله قد بُنيَ على وجود حقائق من جهة ووجود معايير موضوعية إلى جوارها من جهة أخرى، فكيف يفتقد خصوص (الحق والباطل) أو الصدق والكذب (المعيار الموضوعي)؟ وهذا ما يشهد به منهج (البرهان الفرضي) و(البرهان الاستنباطي) و(الاستقراء المعلل) حيث يشهد التتبع، بوجود (الموازين لكل شيء) وكلما ازددنا تتبعاً ودقة وعمقاً، ازددنا أدلة وشواهد وازددنا اقتناعاً، ومن ذلك:

المرجعيات والمقاييس التكوينية والعملية والفكرية

(الميزان) للأجرام والأثقال، فإنه هو المقياس الموضوعي، على اختلاف أصنافه: بين ما يوزن به (الذهب) فيحدد لك حتى وزن المثاقيل والغرامات، أو ما توزن به (الفواكه والأطعمة)، فيعطيك الوزن بالأرطال والكيلوات، أو ما

(١) لا بالنظر لحكمة الباري جل وعلا فقط، حتى يعترض بأن هذا ينفع المؤمنين بوجوده وحكمته فقط، بل بالنظر للاستقراء المعلل والبرهان الاستنباطي وغيرهما كما في المتن أيضاً.

توزن به (الأحجار الكبيرة)، فتحدد لك الوزن بالأطنان وهكذا؛ وذلك على اختلاف أشكال الميزان من ذي الكفتين والقبان إلى سائر أنواعه.

(الميزان) للمواقيت والارتفاعات والجغرافيا، وذلك كالاسطرلاب، والبروج والشمس والأرض بحركتها وظلالها وغير ذلك، والنجوم.

(الميزان) للدوائر والقسي، وذلك كـ(الفرجار) وغيره.

(الميزان) للأعمدة، كـ(الشاقول).

(الميزان) للخطوط، كـ(المسطرة).

(الميزان) للشعر، كـ(العروض).

(الميزان) للفكر، كـ(المنطق).

وهكذا مما لا يعد ويحصى، من الموازين الأخرى الحديثة:

فـ(الميزان) لقياس ذبذبات الصوت وقوة الزلزلة هو مقياس (ريختر).

ولأمواج النور هو (الفوتون).

وكذا الموازين والمقاييس الحديثة الموجودة بالفعل أو التي ستخترع لتحديد حجم الكتلة، أو درجة الضغط والحرارة، أو مختلف أنواع المادة والطاقة.

وكذلك الموازين الغيبية

ومنها: (موازين يوم القيامة) و﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَـةِ﴾[١]

ومن أظهرها: «السلام عليك يا ميزان الأعمال»[٢]، مخاطباً أمير المؤمنين عليه سلام الله وملائكته والمرسلين، فإنه ميزان الأعمال وميزان الكفر والنفاق والإيمان كما صرح بذلك رسول الله ﷺ)[٣].

(١) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٧ باب زياراته عليه السلام المطلقة التي لا تختص بوقت من الأوقات، ص٢٨٧ ح١.

(٣) نقد الهرمينوطيقا ونسبية الحقيقة والمعرفة: ص١٤٠ ـ ١٤٢ بتصرف.

مرجعيات في عالم التكوين والتشريع، لتصحيح الأخطاء

وهنالـك مرجعيـات كـثيرة في عـالم التكـوين والتشـريع وفي عـالم الإدارة والسياسة والاقتصاد وغيرها، إضافة إلى المرجعيات في عالم الاجتهاد والفهم والاستنباط، ومن تلك المرجعيات:

النقطة

فقد كان الخط الكوفي قديماً بدون نقاط وكان الكثير من الناس يقع في الخطأ أو في العَنَت لاكتشاف الصحيح من الخطأ، إلى أن جاءت النقطة كمرجعية علمية لتمييز الكلمات فمثلاً كلمة (حد) فإنها على منهج حذف النقاط لا يعلم أنها حَدّ (حد الشيء طرفه) أو هي خد (الخد من الوجه) أو هي جَد (جد الإنسان) ثم جاءت الحركات والتشكيلات كمرجعية مكمّلة إذ إن (جد) على منهج حذف الحركات لا يعلم أنها بكسر الجيم (جِدّ) أي كن جاداً في درسك مثلاً أو بضمه (جُدْ) أمر بالجود والكرم أو (جَدَّ) بفتحها أي جدَّ في المسير مثلاً، وهكذا حال أمثال جبار وختار ونصر ونضر وبصر وبرح وبرج وترح إلى ما لا يحصى من الكلمات.

الاختصارات

فإن كثيراً من المطالب أو المسائل أو العلوم تنمحي من ذهن الإنسان، إلا أن اختصارها يصلح مرجعية سهلة للذهن ليستخرجها من الأرشيف؛ ولذلك أمثلة كثيرة في كل العلوم.

اطرّست للعمرة

ففي علم الفقه: يختصر الشيخ البهائي العظيم ﵀ أفعال العمرة ثم الحج في أوائل حروفها هكذا:

(أطرّست) للعمرة اجعل نهج (أوو إرنحط رسّطر مر) لحج[١]

والعمرة: إحرام، طواف، ركعتا الطواف، السعي، والتقصير.

والحج: إحرام، وقوف بعرفة، وقوف بالمشعر، إفاضة إلى منى، رمي، نحر، حلق، طواف، ركعتاه، سعي، طواف النساء، ركعتاه، مبيت بمنى، ورمي الجمرة في أيام التشريق.

قاعدة (قفِ إمض)

وفي علم الإدارة: اخترع علماء الإدارة قاعدة أسموها (SWOT) وهي اختصار للكلمات الإنجليزية الأربع المعروفة:

والقوة: عناصر القوة في المشروع Strengths.

الضعف: نقاط الضعف في المشروع Weaknesses.

الفرص: وهي التي يمكن أن تأتي من خارج المشروع Opportunities.

والتهديدات: Threats.

وقد قمتُ بتطوير القاعدة بعد أن حوّلتها للعربية وأضفت لها خامساً هاماً وأساسياً فصارت القاعدة هي (قِف ـ إمض) واللطيف في هذا الاختيار أن كل حرف إضافة إلى أنه يرمز إلى كلمة مفتاحية فإن الحروف الخمسة تتشكل منها

(١) نسبت هذه القاعدة إلى الشيخ البهائي رحمه الله، حيث تمثّل الحروف أعمال العمرة والحجّ، فإنّ صدر البيت يشير إلى أعمال العمرة: فالألف للإحرام، والطاء للطواف، والراء لركعتي الطواف، والسين للسعي، والتاء للتقصير. كما أنّ عجز البيت يشير إلى أعمال الحج: فالألف للاحرام، والواو للوقوف بعرفة، والواو الأُخرى للوقوف بالمشعر، والألف للإفاضة من المشعر إلى منى، والراء لرمي جمرة العقبة، والنون للنحر، والحاء للحلق، والطاء الأُولى لطواف الحجّ، والراء لركعتيه، والسين للسعي، والطاء الثانية لطواف النساء، والراء لركعتيه، والميم للمبيت بمنى، والراء الأُخرى لرمي الجمار الثلاث.

كلمتان مفيدتان في حد ذاتهما هما (قِف) و(إمض) عكس الاختصار الإنجليزي. وتوضيح ذلك:

ان القاف: تشير إلى نقاط القوة.

والفاء: تشير إلى الفرص.

والميم: تشير إلى المخاطر.

والضاد: تشير إلى نقاط الضعف.

وأما الألف الوسطى التي أضفناها فهي تشير إلى إدارة هذه العملية كلها أو الاتقان في الإدارة أو إدارة الوقت أو الاتزان أو الاعتبار أو الاعتدال أو الإيمان؛ والقائمة مفتوحة...

وهذه الخمسة يجب أن يتخذها المرء مرجعاً لتقييم كل مشروع أو مؤسسة أو نشاط أو عمل يقوم به، حتى إمامته للمسجد أو تدريسه في الحوزة أو الجامعة أو إدارته لعائلته أو منظمته أو حزبه أو حكومته أو حتى تقييم ذاته: فما هي نقاط ضعفه الشخصية (كالجبن والحسد أو كثرة النسيان) وما هي نقاط قوته (كالذكاء والكرم فرضاً)، فإن البعض قد يكون ذكياً لكن ذاكرته ضعيفة، والبعض على العكس يكون ذا حافظة قوية ولكنه غير ذكي، فكيف يستثمر نقاط قوته ليسد بها ثغرات نقاط ضعفه؟ وما هي الفرص التي تنتظره: كأن يصبح مجتهداً أو طبيباً أو مديراً ناجحاً، وما هي المخاطر التي قد تعترض طريقه كحاسد أو حاقد أو واشٍ أو جاحدٍ أو سلطان ظلوم أو عدو غشوم.

ثم إن المهم جداً إدارة هذه العملية بدقة وإحكام بحيث يوازن بينها بإتقان ليخرج بمخرجات تتناسب مع مزج مجموع تلك العوامل الأربعة حتى تكون الثمرة السليمة لإدارة العملية كلها بنجاح.

ثـم إنـه كمـا سـبق فـإن الحـروف الخمسـة تشـكل كلمـتين مفيـدتين إذ تعـني (قِف) أن تتوقف بين فترة وأخرى لتقييم وضعك ومشروعك وإنجازاتك ونقاط ضعفك وقوتك وفرصك والمخاطر التي تتهددك، ثم بعد التأمل والتدبر والتفكير العميـق (إمـض) ولا تثبطنّـك المخـاطر أو نقـاط الضـعف والأهاويـل، أو كـلام الأصدقاء أو هجوم الأعداء!.

ضوابط الانصراف الأصولي

وفي علم الأصول: طوّر الأعلام الضوابط للكثير من المسائل الأصولية، والمشهور منها بحث (الحكومة والورود) و(الترتّب) وغيرها، وأيضاً ـ وهذا مثال هام ـ بحث الانصراف فإن الانصراف مادام يعود إلى أمر وجداني وهو انصراف الكلي في ذهنه إلى حصة خاصة، فإنه سينسد باب النقاش حينئذٍ، إلا أن علماء الأصول تجاوزوا هذه الإشكالية المعرفية بتقييم (الانصراف) عبر (مناشئه) ومناشئه مما يمكن محاكمتها:

فإذا كان منشؤه كثرة الوجود لم يصح منشئاً، وإذا كان كثرة الاستعمال بحيث أوجد أنساً ذهنياً خاصاً بالحصة الخاصة كان حجة.

كما أن الميرزا النائيني ﵀ طوّر بحث المناشئ بإضافة منشأ آخر ثم طوّرناها لاحقاً بإضافة ثلاث مناشئ أخرى[1] ـ كما فصلناه في بحث الأصول، فراجع.

ضوابط الأحلام

وفي الأحلام: هنالك مرجعيات محددة، مثلاً: إن الأحلام ليست حجة أبداً في علم العقائد وشؤون أصول الدين كما ليست حجة أبداً في علم الفقه وفي

(١) فمثلاً: قد يكون المنشأ التشكيك في الماهية، وقد يكون المنشأ التشكيك المفهومي وغير ذلك مما ذكر بعضها المحقق النائيني ﵀.

معرفة التكاليف الشرعية، ولذا لم نجد نبياً ولا إماماً يستدل على وحدانية الله بالأحلام! أو يستدل على وجوب الصلاة أو حرمة الخمر بالأحلام[١]! كما ليست الأحلام حجة في كشف الموضوعات الخارجية ككشف السارق مثلاً فإنها وإن فرض أنها أصابت أحياناً إلا أنها كخبط عشواء فكثيراً ما يُتّهم بها المظلوم البريء، فلذا يحرم شرعاً الاعتماد عليها إنما المعتمد الأمارات مثل البينة العادلة الجامعة للشرائط، وقد فصلنا ذلك في كتابي (فقه الرؤى) وهو دراسة فقهية وأصولية في عدم حجية الأحلام على ضوء الكتاب والسنة والعقل والعلم، و(مناشئ الضلال ومباعث الانحراف).

مرجعية استشارة عشرة أشخاص

وفي القضايا الاجتماعية وغيرها: قرر الشارع الأقدس الكثير من المرجعيات ومنها ـ مثلاً ـ: مرجعية استشارة عشرة أشخاص فقد جاء في الرواية: «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَشْتَرِيَ أَوْ يَبِيعَ أَوْ يَدْخُلَ فِي أَمْرٍ فَلْيَبْتَدِئْ بِاللَّهِ وَيَسْأَلْهُ».

قَالَ: قُلْتُ فَمَا يَقُولُ؟ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أُرِيدُ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كَانَ خَيْراً لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَآخِرَتِي وَعَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَيَسِّرْهُ لِي، وَإِنْ كَانَ شَرّاً فِي دِينِي وَدُنْيَايَ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، رَبِّ اعْزِمْ لِي عَلَى رُشْدِي وَإِنْ كَرِهَتْهُ وَأَبَتْهُ نَفْسِي.

ثُمَّ يَسْتَشِيرُ عَشَرَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى عَشَرَةٍ وَلَمْ يُصِبْ إِلَّا خَمْسَةً فَيَسْتَشِيرُ خَمْسَةً مَرَّتَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْ إِلَّا رَجُلَيْنِ فَلْيَسْتَشِرْهُمَا خَمْسَ مَرَّاتٍ فَإِنْ لَمْ يُصِبْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِداً فَلْيَسْتَشِرْهُ عَشْرَ مَرَّاتٍ»[٢].

---

(١) على أن من الضوابط أن رؤى المعصوم عليه السلام خاصة هي حجة وكذا تفسيره للأحلام فإنه حجة كذلك، ولا غير.

(٢) فتح الأبواب: ص١٣٩.

فالتسلسل هكذا: ادع الله تعالى أولاً بطلب الخير وصَرْف الشر، ثم:

استشر عشرة أشخاص عشر مرات.

فإن لم يوجد عشرة أشخاص فاستشر خمسة كل واحد منهم مرتين.

وإن لم يوجد خمسة فاستشر اثنين كل واحد خمس مرات.

فإن لم يوجد إلا واحد فاستشره عشر مرات.

والسرّ في ذلك: إن عشرة أشخاص من عشرة ألوان واتجاهات أو في عشر حالات وإن كانوا من اتجاه واحد، تورث الظن النوعي العقلائي بالأقربية إلى الواقع والأبعدية عن الخطأ، من استشارته مرة واحدة؛ وذلك لأن كلّا منهم يلاحظ ـ عادة ـ القضية من زاويةٍ فتتكامل الرؤية بتعدد زوايا الرؤية فيحيط المستشير، عبر المشورة معهم، بكل أو أكثر جوانب وزوايا القضية بما لا يقارن مما لو استشار واحداً أو اثنين، ثم لو عدم العشرة حتى وصل إلى الواحد فإن استشارة الواحد عشر مرات، والظاهر أنها ليست في مجلس واحد وإلا لكان أشبه باللعب إلا إذا أعاد التفكير كل مرة وتدبر في الأمر من جديد.

فهذا الضابط بدرجاته المختلفة ضابط مرجعي كاشف بالكشف النوعي المعتبر وإن لم يكن قطعياً عن الأفضل ولو النسبي.

وتصوّروا لو أن كل شخص أراد اتخاذ زوجة معينة أو قرر الإقدام على تجارة خاصة أو تأسيس شركة في منطقة خاصة أو غير ذلك، تصوروا أنه لو اقتحم في ذلك بلا مشورة فكم كانت ستكون نسبة الأخطاء والفجائع؟ عكس ما لو استشار مجموعاً عشر مرات؟!

وببالي أن هناك رواية أخرى تقول: إنه لو لم يجد من يستشيره أبداً أي حتى شخصاً واحداً فليفكر عشر مرات، وعلى أي تقدير فإنه على مقتضى القاعدة.

مرجعية علم المنطق

علم المنطق: كما أن علم المنطق يعدّ ضمانة من وقوع الإنسان في الخطأ في التفكير من حيث العلة الصورية، فلاحظ الأشكال الأربعة وعكس النقيض والمستوي والموجهات.. الخ، فإنها لا تعطيك ضوابط لمعرفة الخطأ من الصحيح في مادة القضية بل بعد فرضها صحيحة فإنه يبحث عن شروط إنتاجها من حيث العلة الصورية وشكل الأقيسة.

مرجعية علم الضوابط (المبتكر)

علم الضوابط: ولكن يوجد هناك علم آخر لم تصل إليه البشرية حتى الآن، وهو ما اسميناه علم الضوابط وكتبنا عنه كتاباً مفصلاً تحت عنوان (الضوابط والطرق الكلية لضمان الإصابة في الأحكام العقلية) وهذا العلم مكانه شاغر جداً على امتداد التاريخ، إذ من المعروف أن كثيراً من الأخطاء وبتبعها المتناقضات تنشأ من الخطأ في مادة القضية نفسها، ولا يوجد حتى الآن علم مكتوب يضع الضوابط لذلك.

لا يقال: بحث الصناعات الخمس تكفل بذلك؟

إذ يقال: كلا؛ فإنه بحث عن الكليات لا التطبيقات أي إنه يبحث عن البرهان والمغالطة والجدل والخطابة والشعر وإنها عمّ تتكوّن؟ وعن ضوابطها الكلية العامة، ولكن من أين نعلم بأن هذا الاستدلال مغالطة أو برهان؟ هذا مما لم يبحثه المنطق وهو موضوع علم الضوابط.

ويعود الفضل في اكتشاف هذا العلم إلى الله تعالى وإلى أهل البيت الأطهار عليهم السلام أولاً وأخيراً، وليس للعبد الفقير دور إلا أن اهتدى للمفتاح إليه



والمفتاح هو: جال بالخاطر أنه لا بد أن تكون بالنظر لحكمة الله تعالى ضوابط في عالم الثبوت، لكن ما السبيل إليها في عالم الإثبات؟ السبيل الوحيد هو الكتب السماوية والمتصلة بالوحي، لذلك تدبرت طويلاً في القرآن الكريم ونهج البلاغة وغيرهما لاكتشف ـ بعد التدبر ـ مجموعة من الضوابط لضمان الإصابة من حيث العلة المادية، ولا ادعي الكمال ولا الإحاطة ولا الإصابة المطلقة بل هي محاولة أولى من نوعها، على أنني استفرغت فيها الوسع ولله الحمد، ورغم أأنني كتبت الكتاب قبل حوالي عشر سنين[1]، إلا أنني أخرته كي أعيد النظر فيه مراراً وتكراراً كي يخرج أقرب ما يمكن للهدف المتوخى بإذن الله تعالى.

لماذا لم يؤلف الأئمة عليهم السلام الكتب؟

ثم إن مما اشغل بالي حين التدبر في هذا العلم، وفي أوقات أخرى، السؤال التالي: وهو لماذا لم يكتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام كتباً وافية بكل ذلك بحيث تصل إلينا؟!

والجواب: أولاً: إن الكتب التي أمليت على الزهراء عليها السلام كمصحف فاطمة عليها السلام والجفر، والجامعة ـ وهي مصحف علي عليه السلام ـ تحتوي على كل التفاصيل؛ فمثلاً الجامعة تتضمن كافة ما يحتاجه الناس وقد ورد عن أبي بصير قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ هَاهُنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلَامِي. قَالَ: فَرَفَعَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام سِتْراً بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَيْتٍ آخَرَ فَاطَّلَعَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ».

قَالَ قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّ شِيعَتَكَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم عَلَّمَ عَلِيّاً عليه السلام بَاباً يُفْتَحُ لَهُ مِنْهُ أَلْفُ بَابٍ.

---

(١) ويقع في حوالي خمسمائة صفحة.

قَالَ: فَقَالَ: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ عَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيّاً عليه السلام أَلْفَ بَابٍ يُفْتَحُ مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفُ بَابٍ.

قَالَ: قُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ الْعِلْمُ.

قَالَ: فَنَكَتَ سَاعَةً فِي الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ «إِنَّهُ لَعِلْمٌ وَمَا هُوَ بِذَاكَ».

قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ وَإِنَّ عِنْدَنَا الْجَامِعَةَ وَمَا يُدْرِيهِمْ مَا الْجَامِعَةُ».

قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ وَمَا الْجَامِعَةُ؟

قَالَ: «صَحِيفَةٌ طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً بِذِرَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِمْلَائِهِ، مِنْ فَلْقِ فِيهِ وَخَطِّ عَلِيٍّ بِيَمِينِهِ فِيهَا كُلُّ حَلَالٍ وَحَرَامٍ وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ حَتَّى الْأَرْشُ فِي الْخَدْشِ»[١].

وتلك الكتب كلها موجودة لديهم عليهم السلام وحيث إن الأمة اعرضت عنهم حرمها الله من هذا الفيض والنعيم نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

ثانياً: إن الحكمة اقتضت في عالم الامتحان والابتلاء الذي أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[٣] وفي عالم تقصير البشر وقصوره أو عناده ولجاجه وظلمه، مجرد إلقاء الكليات «عَلَيْنَا إِلْقَاءُ الْأُصُولِ وَعَلَيْكُمُ التَّفْرِيعُ»[٤] و«إِنَّمَا عَلَيْنَا

(١) الكافي: ج١ ص٢٣٨.

(٢) سورة الأعراف: ٩٦.

(٣) سورة البقرة: ١٥٥.

(٤) مستطرفات السرائر: ص٥٧٥.

أَنْ نُلْقِيَ إِلَيْكُمُ الْأُصُولَ وَعَلَيْكُمْ أَنْ تُفَرِّعُوا»[1] ويترك التفريع والتفصيل إلى جهد الإنسان، ولو أنهم عليهم السلام كتبوا كل مسألة أصولية أو فقهية أو تفسيرية أو غيرها لتوقفت مسيرة العلم أي أنهم كانوا قد أوصلوه منذ ذلك الحين إلى قمته فلم يكن هناك مجال للبشر لكي يتكامل.

بل إن هذه الفلسفة سيالة في كل العلوم فإنه لأجل ذلك بعينه لم يكتبوا الكتب المفصلة في الطب أو الفلسفة أو الفيزياء أو غيرها مع أنه كان من البسيط جداً ذلك خاصة في مدة قرنين ونصف وأكثر، ولكن ذلك خلاف حكمة الله وفلسفته في خلق الإنسان ولو فعل ذلك لكان ذلك عالماً آخر لا هذا العالم مع أن كل عالَمٍ يتطلب بلسان ماهيته إفاضة الوجود عليه؛ إضافة إلى أن الثواب بالسعي والتكامل بالجهد، لا بما حصل عليه دون سعي وجهد.

بل لو ورد عليهم الإشكال لورد ـ والعياذ بالله ـ على رب العزة والجلالة إنه لماذا لم ينزل كتباً (ولتكن بالألوف) بها تفصيل كل شيء للبشر؟ بل لماذا لم يخلق كل المعلومات في أمخاخنا لكي نستغني حتى عن المطالعة؟ وقد فصلنا الجواب عن هذه الشبهة في بحث سابق كما فصل السيد الأستاذ الأخ الأكبر الرضا قدس سره الجواب عنها في إحدى محاضراته القيمة.

بصيرة قرآنية: ثمرات أصولية لآية الشاكلة

إن المتدبر في الآية الشريفة قد يجدها مفتاحاً للكثير من المباحث الأصولية أو العقدية أو الأخلاقية وغيرها؛ وهنا نتوقف عند واحدة من الثمرات الأصولية لقوله تعالى: ﴿أَهْدَى سَبِيلاً﴾ فإن قوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ يكوّن الصغرى للعديد من الكبريات الأصولية بضميمة كونه إشارة إلى

(١) مستطرفات السرائر: ص٥٧٥.

نكتة ارتكازية عقلائية بل عقلية، وتوضيحه:

إن ﴿أَهْدَى﴾ أفعل تفضيل ومن الثابت أنه يفيد ـ كأصل عام ـ مشاركة المفضّل عليه للمفضّل في مادة الاشتقاق، وأما انسلاخ أفعل التفضيل عن المفاضلة وتمحّض المفضّل في الاستحواذ على مادة الاشتقاق مع فقدان المفضّل عليه لها، كقوله تعالى: ﴿الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾[1] فإن غير الحق لا وجه لاستحقاقه لأن يتبع ليكون الحق أحق أن يتبع بل المراد أنه حقيق بأن يتبع وغيره لا، فهو خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بقرينة.

وعليه: فـ﴿أَهْدَى سَبِيلاً﴾ ظاهرة في أن بعض الناس أهدى وبعض الناس مهتدٍ إلى سواء السبيل، كما أن بعضهم غير مهتد أصلاً، فمثلاً الأعلم في الطب أو الفيزياء أو الفقه هو الأهدى سبيلاً من غير الأعلم فإن غير الأعلم أكثر احتمالاً للخطأ وأكثر عرضة للاشتباه في تشخيص المرض أو العلاج أو الظاهرة أو الحكم الشرعي، من الأعلم.

ويتفرع على هذين الأصلين القرآنيين (إن الكل يعمل على شاكلته، وإن بعضهم أهدى سبيلاً من بعض) العديد من الثمرات الأصولية التي قد تعد صغرى لهذه الكبرى.

الأخباريون: الأحاديث كلها صحيحة ولا درجات فيها!

فمنها: إنه يمكن الجواب عن إشكال الأخباريين على الأصوليين في مسألة تقسيم الحديث إلى الأنواع الأربعة، فقد اعتبر بعض الأخباريين الأحاديث كلها حجة وبدرجة واحدة من الحجية، أي اعتبرها صحيحة بل إن بعضهم بالغ وأفرط وجاوز الحد إذ اتهم العلامة الحلي رحمه الله بهدم الدين، وقال: هدم الإسلام

(١) سورة يونس: ٣٥.

مـرتين: مـرة يـوم السـقيفة ومـرة يـوم ولـد العلامـة الحلـي!! وذلـك لأن العلامـة الحلي ﵀ صنّف الأحاديث إلى الصحيح والموثق والحسنُ والضعيف، فقالوا هذا منكر قطعي لأن أحاديث الأئمة عليهم السلام كلها نور وكلها صحيحة ولا معنى لأن توصف بالحسن والوثاقة النازلتين درجةً عن الصحة فكيف بالضعف، وإن القدماء لذلك اعتبروا الأحاديث الواصلة عنهم عليهم السلام كلها صحيحة.

الجواب: للروايات درجات، كالواجبات، والترجيح بالمرجّحات

ولكن هذا الوهم والإشكال باطل، وهو إشكال عوامي في أصله؛ فإنه كمن يقول: إن الواجبات كلها واجبة من قبل الله تعالى وبدرجة واحدة ولا معنى لوصف بعضها بالكبيرة وبعضها بالصغيرة وبعضها بالأهم وبعضها بالمهم، وكذلك المحرمات فكلها معصية لله تعالى فكيف تصف بعضها بأنها أهم أو أكبر من الأخرى؟!

والجواب واضح لبداهة أن الصلاة أمر واجب أهم من الصوم رغم أنه واجب أيضاً؛ فإن الصلاة عمود الدين وليس الصوم بتلك المثابة، وكذا المحرمات فإنه لا شك أن الزنا أشد حرمةً وعقوبةً من مجرد النظر للأجنبية ولا شك أن الربا أعظم وأفدح وأكثر فساداً من مجرد تأخير أداء الدين البسيط وأن القتل أعظم من السرقة وأن شرب الخمر أفدح من شرب المتنجس بوقوع قطرة دم فيه مثلاً، وإن المعاصي - بشكل عام - هي كبائر وصغائر بصريح القرآن الكريم إذ يقول جل وعلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾[1].

فكما أن كونها جميعاً أحكاماً من قبل الله تعالى لا يمنع كونها على درجات، فكذلك كون الروايات جميعاً إخباراً عن الرسول والأئمة عليهم السلام لا

(١) سورة النساء: ٣١.

يمنع كونها درجات، والوجه في ذلك وضوح أن التصنيف ليس لكلامهم نفسه (على أنه أيضاً صحيح بوجهٍ إذ إنهم كما قالوا: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»(١) فكلامهم على مستويات إذ يراعون مستوى السامع ومدى تحمله ومدى قوة عقله أو ضعفه) بل التصنيف لرواية الرواة عنهم، ومن البديهي أن الرواة على درجات في الوثاقة والفقه أو الأفقهية والضبط أو الأضبطية وغيرها، ومن البديهي أن بعض الرواة أقوى حفظاً من بعض وأن بعضهم أفقه من بعض فإذا روى الأكثر حفظاً كان الوثوق به أكثر من الأضعف وكذا إذا روى الأفقه بالمضمون ـ وقد أجاز الأئمة عليهم السلام النقل بالمضمون بصريح الروايات ـ وروى العامي بالمضمون فإن الثقة بدقة نقل الأفقه والتفاته لدقائق كلام الإمام عليه السلام ونقلها لا تقارن بغيره، والحاصل إن بعضهم ﴿أَهْدَى سَبِيلاً﴾ من بعض!

بل نقول: إنه لا شك أن الحديث على درجات كثيرة في نفس دائرة الصحيح والموثق والحسن والضعيف؛ لأن الرواة على درجات في الوثاقة والحفظ والتذكر وفي الضبط أو الأضبطية وفي الفقه أو الأفقهية.

وتظهر ثمرة ذلك لدى التعارض بين خبرين روى أحدهما من هو أكثر فقهاً أو عدالة أو ورعاً أو صدقاً من الآخر، مع كون الروايتين صحيحتين فإن الترجيح للأفقه أو الأعدل ـ إلى آخره ـ، وقد صرحت بذلك الروايات كما ورد في مقبولة ابن حنظلة: «الْحُكْمُ مَا حَكَمَ بِهِ أَعْدَلُهُمَا وَأَفْقَهُهُمَا وَأَصْدَقُهُمَا فِي الْحَدِيثِ وَأَوْرَعُهُمَا وَلَا يَلْتَفِتْ إِلَى مَا يَحْكُمُ بِهِ الْآخَرُ»(٢).

(١) الكافي: ج١ ص٢٣.

(٢) الكافي: ج١ ص٦٧.



ترجيح الأعلم على غيره

ومنها: ما سبق من ترجيح الأعلم على غيره لدى التعارض، وإن قلنا بالترجيح والأفضلية فقط دون التعيّن؛ لما فصلناه في (تقليد الأعلم وحجية فتوى المفضول)، فراجع.

مدارية أقربية الإصابة في الحجج

ومنها: إن الآية الشريفة قد تصلح مؤيداً بل دليلاً على البحث الأصولي المعروف وهو أن الملاك في حجية الحجج هل هو (أقربية الإصابة للواقع)؟ أو هو (أقوائية الظن الحاصل من الدليل من قسيمه أو من مناقضه أو ضده نوعاً)؟ والنسبة بين الأمرين[1] عموم من وجه، أو هو (المصلحة السلوكية)؟ أو (التعبد)؟ (التعبد)؟ أو (المجموع المركب من الأول والأخير أو الثاني والأخير أو كليهما مع الثالث أو الاول أو الثاني مع الثالث)؟

فقد يقال: بأن من مرجحات أن الأقربية للواقع هي الملاك مثل قوله تعالى: ﴿أَهْدَى سَبِيلاً﴾ إذ الآية تثبت إجمالاً أن هناك من هو أهدى سبيلاً، والعقل يحكم بأن الأهدى سبيلاً أحق أن يتبع ثم الوجدان يشهد بأن هذا، كالأعلم أو الأوثق، أهدى سبيلاً.

وبعبارة أخرى: الآية الشريفة تشير إلى نكتة ارتكازية عقلية ـ وجدانية وعقلائية وهي أن الأهدى سبيلاً أحق أن يتبع.

وبعبارة أخرى: إن قوله تعالى: ﴿أَهْدَى سَبِيلاً﴾ يمكن أن يشكل جزء المقدم في قضية شرطية استثنائية بأن يقال:

أ ـ (كلما كان أحدهما أو أحدهم أهدى سبيلاً ـ الأعلم وغيره، الأكثر

---

(١) أقربية الإصابة وأقوائية الظن الحاصل.

خبرة وغيره، المطابق لرأي الشورى وغيره ـ وجب أو رجُح، على الرأيين، إتباعه) لِحُكم العقل بأن الأهدى سبيلاً للواقع يجب أو يرجُح إتباعه إذ الفرض أنه طريق للمصلحة في المتعلَّق أو لتجنب المفسدة فيه أو لإحراز رضا المولى جل وعلا، وإن هذا الطريق أكثر إحرازاً لها وتحصيلاً من غيره.

وإنما يقال بالرجحان لا الوجوب لمزاحمة مصلحة الأقربية للواقع بمصلحة التسهيل وشبهها، ولذا بنى العقلاء على رجحان تقليد الأعلم وإتباع الأكثر خبرة لا على تعيّنه ووجوبه التعييني، كما أنه يمكن أن يلاحظ الشارع مصالح أخرى سلوكية في بسط الحجية على الجميع: الأقرب للإصابة والأهدى سبيلاً مع القريب للإصابة والمهتدي للسبيل؛ ومنها: إن الأصلح للأمة هو تعدد الفقهاء كما أن الأصلح لها تعدد الأطباء والرجوع إليهم جميعاً؛ دون حصر الأمة في زاوية الرجوع للأعلم خاصة والتضييق عليها بحرمة إتباع غيره، لجهات عديدة فصّلناها في شورى الفقهاء، فراجع.

فهذا هو المقدم في الشرطية، ثم يقال:

ب ـ (لكن هذا (الأعلم) أهدى سبيلاً) ج ـ (فيجب أو يرجح إتباعه).

عقلائية ثبوت الدرجات للروايات

وقد يورد على ذلك بوجوه، منها: إنه تنقيح مناط، وقد يجاب بأنه قطعي، أو يجاب بأن الأصل في حجية الحجج مرجعية العقلاء فيها، وقد أمضاها الشارع فإنها إمضائيات لا تأسيسيات، وبناؤهم على ملاكية الأقرب للإصابة، وقد يناقش في ذلك بما فصلناه في كتاب (شورى الفقهاء والقيادات الإسلامية) و(تقليد الأعلم وحجية فتوى المفضول) فراجع، كما قد يجاب بأن بعض الحجج قد نصّ في الروايات على أقربيته للإصابة ـ كالمورد الآتي ـ، فتدبر.

أين يكون تنقيح المناط حجة؟

وبعبارة أخرى: إن القياس ليس بحجة في معرفة ملاكات أحكام الشارع، لكنه لا مانع منه في أربع موارد: في ملاكات أحكام الموالي العرفية، وملاكات أحكام العقلاء بما هم عقلاء، وفيمن فوّض إليه الشارع الولاية، إضافة إلى مورد رابع وهو الحجج العقلائية، (وهو محل الكلام ههنا).

أما في الثلاثة الأولى، فلوضوح إحاطة الموالي العرفية بملاكات أحكامهم الصادرة منهم وكذلك العقلاء بما هم عقلاء، وإلا لما حكموا؛ ولوضوح ضرورة إحاطة من جعله الشارع ولِيّاً في حدود الولاية المجعولة له، فمثلاً: الفقيه يجب أن يحيط بملاكات أحكامه الولائية وإلا لما صح له أن يحكم ولائياً، وكذلك ضرورة إحاطة الأب أو القيّم على الصغار والوقف بملاكات أحكامه الجزئية الولوية وإلا لما جاز له إصدار الحكم الولوي.

فمثلاً: فوّض العقلاء والشارع للأب أن يشتري لأولاده أيّ مأكل أو ملبس أو جهاز أراده مما كان فيه غبطتهم ومصلحتهم[1] فقد أوكل إليه الشارع (أو العقلاء) تشخيص المصلحة فلا بد أن يكون محيطاً بها وبمزاحماتها وموانعها بالقدر العرفي فإذا أحاط بالمصلحة في شراء هذا الجهاز للطفل ثم رأى أن نفس المصلحة كامنة في شراء جهاز آخر جاز له دون شك فإنه ليس بقياس ظني بل هو تنقيح مناط قطعي، والأوضح أن يمثل بنائبه أو وكيله خاصة إذا عجز عن تحصيل الملاك بنفسه فإن له أن يعتمد على ملاكات موكله.

وكذلك الفقيه فإنه على القول بولايته، وفي وحدود ولايته، فإنه لا بد من أن يحيط بملاك حكمه الولوي بإجراء هذه المعاهدة مع هذه الدولة أو الحرب مع تلك

(١) أو لم يكن فيه مفسدة لهم، على الحد الأدنى، على الرأي الآخر.

الدولة أو تحديد قيمة العملة بكذا، بعد الاستشارة من الخبراء أو شبه ذلك - بناءً على أن له ذلك شرعاً - فإذا أحاط بملاك أمر ولوي فحكم كان لا بد أن يكون ذلك تمام الملاك فكان له تنقيح المناط بالبداهة إذ هو قطعي وليس قياساً ظنياً.

وذلك على العكس من ملاكات أحكام الشارع فإن الشارع لم يحطنا خبراً بملاكات أحكامه بل فوّض علمها للرسول المصطفى ﷺ ثم إلى باب مدينة علمه علي المرتضى عليه السلام والزهراء البتول عليها السلام وسائر الأئمة النجباء عليهم السلام، نعم هم عليهم السلام الذين يملكون تعدية الحكم لغير مورد النص الإلهي - القرآني أو القدسي - لعلمهم بكافة جهات ما له مدخل في الحكم، دوننا إذ لم يفوّض إلينا علم كافة جهات ملاكات أحكامه تعالى بمزاحماتها وموانعها ودوافعها وغير ذلك.

لذلك كان القياس في أحكام الشارع ظنياً محرماً، وكان تنقيح المناط قطعياً بالنسبة إلى الفقيه في الموضوعات المخوّلة له، لأنه المحيط بملاكات الأصل والفرع مادام قد فوّض إليه؛ وكذا حال سائر الأولياء كالأب والوصي والقيّم.

حجية تنقيح المناط في (الحجج)

وأما (الحُجَج) فإن كان الكلام عن حجة خاصة أسّس الشارع حجيتها، من غير أن يدرك العقلاء ملاكاتها، فلا كلام في عدم جواز القياس، وإنما الكلام في الحجج العقلائية التي أمضاها الشارع ولو بعدم الردع، كخبر الثقة وحجية الظواهر في الأحكام وكالبينة في الموضوعات، بل إن الشارع أمضى معظمها بالإمضاء المباشر الصريح، فحيث إن الفرض أنها حجج عقلائية فلا بد أن يكون العقلاء قد أحاطوا بجهات ملاكاتها حتى حكموا بحجيتها دون حجية غيرها - كالأحلام والرمل والأسطرلاب مثلاً -، وحيث أحاطوا بجهات ملاكاتها فإنه يصح لهم تعدية الحكم إلى أي أمر آخر يرونه مساوياً في القرب للإصابة أو

أقرب، مما عدوه حجة.

بعبارة أخرى: إذا أمضى الشارع حجية الحجج العقلائية كشف عن أنه أمضى ملاكيتها التامة، وإلا لما أمضى حجيتها، فحيث أمضى ملاكيتها التامة، والفرض أن العقلاء بها عارفون وإلا لما كانوا هم الذين اعتبروها حجة، فيكون تنقيح المناط حينئذٍ قطعياً، بل سيكون المناط حاضراً لديهم من غير حاجة إلى تنقيح إلا أن يراد بالتنقيح الاستحضار التفصيلي بعد الوجود الإجمالي في مرتكزاتهم، فتدبر جيداً.

ويؤيد ما ذكرناه: أن الفقهاء صرحوا بأن (الحجج) حجة من باب الظن النوعي لا الشخصي الذي يقول به الانسدادي، فالظن النوعي ـ أي الحاصل للنوع ـ يكونون هم الملاك فيه وهم المرجع له فكلما رأوه مشتملاً عليه عدّوه حجة، فتأمل.

نعم، كلما رأى الشارع غفلة العقلاء عن جهةٍ مزاحمةٍ مثلاً، كان له أن يتدخل بإضافة قيد أو رفع قيد، وذلك في خصوص الحجج على أحكامه، لا في الحجج على أحكامهم لأن الأولى من شأنه دون الأخيرة، فإذا فعل لم يصح التخطي عنه لكشف عدم إمضائه إلا بهذا الشرط عن عدم كفاية الملاك الذي اعتبره العقلاء طريقاً للوصول إلى أحكامه، ولذا أضاف إليه شرطاً، فكلما امضى دون قيد أو شرط، كما في حجية الظواهر وخبر الثقة، كشف عن تمامية ما رآه العقلاء تمام الملاك للحجية.

أقربية رأي الشورى من الخبير أو المجتهد الواحد

ومنها: حجية آراء المشيرين بل حجية رأي الشورى أي أكثريتهم نظراً لأقربية إصابتها للواقع في الموضوعات المبتلى بها، أي في مطلق الموضوعات وفي

الشؤون العامة.

لشهادة العقل والعقلاء بذلك

ويدل على أقربية الشورى للإصابة من رأي الفرد الواحد:

أولاً: العقل.

وثانياً: بناء العقلاء، فلاحظ مثلاً بناءهم على الاعتماد على اللجنة الطبية أكثر من الاعتماد على الطبيب الواحد، وإنما لم نقل بالتعيين في مثل ذلك ومثل الأعلم لأجل مزاحمة ذلك لمصلحة التسهيل بل واختلال النظام مطلقاً أو في الجملة اللازم من فرض إغلاق أبواب غير الأعلم وغير اللجان الشورية، وغير ذلك مما فصلناه في ذلك الكتاب، فراجع.

والروايات

وثالثاً: العشرات من الروايات الصريحة في ذلك أو الظاهرة أو الدالة عليه بدلالة الاقتضاء أو التنبيه والإيماء والإشارة أو شبه ذلك:

ومن الروايات: ١ـ عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: «اسْتَشِرِ الْعَاقِلَ مِنَ الرِّجَالِ الْوَرِعَ، فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَإِيَّاكَ وَالْخِلَافَ فَإِنَّ مُخَالَفَةَ الْوَرِعِ الْعَاقِلِ مَفْسَدَةٌ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا»[1]. فرأيه هو الأهدى سبيلاً من التفرد بالرأي والاستبداد به، فكيف بمجوعة من العقلاء الورعين؟!

٢: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مُشَاوَرَةُ الْعَاقِلِ النَّاصِحِ رُشْدٌ وَيُمْنٌ وَتَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ، فَإِذَا أَشَارَ عَلَيْكَ النَّاصِحُ الْعَاقِلُ فَإِيَّاكَ وَالْخِلَافَ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَطَبَ»[2].

(١) المحاسن: ج٢ ص٦٠٢/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٢ ب٢٢ ح١٥٥٩٤ / وبحار الأنوار: ج٧٢ ص١٠١ و ج٨٨ ص٢٥٤.

(٢) تحف العقول: ص٣٩٧ / والمحاسن: ج٢ ص٦٠٢/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٢ ب٢٢ ح١٥٥٩٥.

٣: قال أبو عبد الله عليه السلام: «مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ مَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ أَنْ يَسْتَشِيرَ رَجُلًا عَاقِلًا لَهُ دِينٌ وَوَرَعٌ»، ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «أَمَا إِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَخْذُلْهُ اللَّهُ بَلْ يَرْفَعُهُ اللَّهُ وَرَمَاهُ بِخَيْرِ الْأُمُورِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى اللَّهِ»[1].

٤: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «قَدْ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ»[2].

٥: عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهما السلام قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْحَزْمُ؟ قَالَ: مُشَاوَرَةُ ذَوِي الرَّأْيِ وَاتِّبَاعُهُم»[3].

٦: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: فيما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام قال: «لَا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ، وَلَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ»[4].

٧: من وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: «مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَشِرْ يَنْدَمِ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَالْفَقْرُ هُوَ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ»[5].

٨: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لَنْ يَهْلِكَ امْرُؤٌ عَنْ مَشُورَةٍ»[6].

٩: وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ

(١) المحاسن: ج٢ ص٦٠٢/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٢ ب٢٢ ح١٥٥٩٦/ وبحار الأنوار: ج٧٢ ص١٠٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٨٨/ والأمالي ـ للصدوق رحمه الله ـ: ص٤٤٦/ وعيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢ ص٥٣/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٠ ب٢١ ح١٥٥٨٩.

(٣) المحاسن: ج٢ ص٦٠٠/ ومكارم الأخلاق: ص٣١٩/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٣٩ ب٢١ ح١٥٥٨٢.

(٤) نهج البلاغة: باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة: ١١٣/ الكافي: ج٨ ص٢٠/ وتحف العقول: ص٩٢/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٣٩ ب٢١ ح١٥٥٨٣.

(٥) تحف العقول: ص٦.

(٦) المحاسن: ج٢ ص٦٠١/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٠ ب٢١ ح١٥٥٨٥.

الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا»(١).

١٠: وعنه عليه السلام: «وَمَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَأِ»(٢).

١١: وعنه عليه السلام: «فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي»(٣).

١٢: وعنه عليه السلام: «لَا غِنَى كَالْعَقْلِ، وَلَا فَقْرَ كَالْجَهْلِ، وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ، وَلَا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ»(٤).

١٣: وعنه عليه السلام: «... وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ، وَلَا عِزَّ كَالْحِلْمِ، وَلَا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ»(٥).

١٤: وعنه عليه السلام: «وَالِاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهِدَايَةِ، وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ

---

(١) نهج البلاغة: باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة: ١٦١/ وهي مذكورة أيضاً في غرر الحكم: ص٢٦٦ و٢٨٤ / وفي ربيع الأبرار باب العقل والفطنة للزمخشري.

(٢) نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة: ١٧٣/ وهي مذكورة أيضاً في تحف العقول: ص٩٠/ وروضة الكافي: ص١٩/ ومن لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٢٧٨/ ودستور معالم الحكم ـ للقضاعي ـ: ص٢٨/ وغرر الحكم.

(٣) نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين، الخطبة ٢١٦، أواخر الخطبة المذكورة في روضة الكافي: ص٣٥٢.

(٤) نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة: ٥٤/ ومذكورة أيضاً في تحف العقول: ص ٢٠١ و٨٩ و٩٤/ وفي روضة الكافي: ص١٧/ وفي الأمالي: ص١٩٣/ وفي غرر الحكم وفي البصائر والذخائر وغيرها.

(٥) نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة: ١١٣/ وهي موجودة في المصادر السابقة أيضاً.

اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ»[١].

وقد فصلنا وجوه الاستدلال بها في كتاب (شورى الفقهاء والقيادات الإسلامية)[٢] فراجع.

ومما جاء فيه: (الوجه الثاني: أقربية الإصابة في رأي المشيرين من رأي الواحد

فإنه إذا كان في اتباع رأي المشير الناصح (أقربية للواقع)، سواء في الشؤون الدينية أم الدنيوية، حيث قال عليه السلام: «فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ»[٣]، وقال: «بَلْ يرفَعُهُ اللَّهُ وَرَمَاهُ بِخَيْرِ الْأُمُورِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى اللَّهِ»[٤]، وقال: «مُشَاوَرَةُ الْعَاقِلِ النَّاصِحِ رُشْدٌ وَيُمْنٌ وَتَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ»[٥]، وإذا كان في مخالفته الأبعدية عن الواقع بل (مفسدة في الدين والدنيا)، و«فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَطَبَ»، فماذا ترى في اتباع عدة مشيرين ناصحين، وكيف بمخالفة مجموعة منهم[٦].

(١) نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة: ٢١١/ وهذه مذكورة في تحف العقول: ص٩٨/ وروضة الكافي: ص١٦/ وأدب الدنيا والدين: ص ١٦٢ و٢٧٣ و٢٧٥/ وسراج الملوك: ص١٨٥/ وغرر الحكم/ ودستور معالم الحكم: ص١٥/ ومطالب السؤول: ج١ ص١٦٢/ ونهاية الأرب: ج٦ ص٨٥/ والنهاية في غريب الحديث: ج٣ ص٤٢١/ والآداب السلطانية: ص١٥/ هذا ولا يخفى أننا اعتمدنا في معرفة مصادر بعض هذه الأحاديث الشريفة على كتاب مصادر نهج البلاغة للسيد عبد الزهراء الخطيب، فشكر الله سعيه.

(٢) راجع كتاب (شورى الفقهاء والقيادات الإسلامية من ص٤١٥ إلى ٤٥٢).

(٣) المحاسن: ج٢ ص٦٠٢/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٢ ب٢٢ ح١٥٥٩٤.

(٤) المحاسن: ج٢ ص٦٠٢/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٢ ب٢٢ ح١٥٥٩٦/ وبحار الأنوار: ج٧٢ ص١٠٢.

(٥) تحف العقول: ص٣٩٧/ والمحاسن، ج٢ ص٦٠٢/ ووسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٢ ب٢٢ ح١٥٥٩٥ وج١٢ ص٤٢ ب٢٢ ح١٥٥٩٥.

(٦) أو مخالفة أكثريتهم؟

وأما في صورة تخالف النصائح وتناقض آراء المشيرين فاتباع رأي أكثرية الناصحين هو المحتم، كما فصلناه في موضع آخر، وسنفصله عند التطرق للمقبولة والمرفوعة والتوقيع المبارك.

ونزيد هنا: إن السرّ في كون اتباع الناصح المشير رشداً ويمناً وخيراً وأقرب إلى الله هو أنه يرى ما لا يراه المستشير، كما ورد عنه عليه السلام: «وَمَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَأِ»[1]، ولذا ورد: «أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله»[2]، إذ إن كل عقل يرى جهةً ويقترح اقتراحاً فيكون باجتماعها الكمال والتكامل، وقد ورد عنه عليه السلام: «وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ»[3]، ومن الواضح أن العقول المتعددة لها تجارب تفوق تجارب إحداها، وقال عليه السلام: «وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا»[4]، وإذا كان لأجل ذلك ورد الأمر باتباع الناصح الواحد، ففيما تعدد الناصحون المشيرون وتخالفت آراؤهم وكانت الأكثرية على رأي معين فإن اتباعها أولى وألزم لأقوائية الملاك المصرح به في الروايات، فتأمل)[5].

بصيرة قرآنية: مسائل كلامية تستفاد من آية الشاكلة

لقد أمرنا الأئمة الأطهار عليهم السلام بالتفريع على الأصول إذ قالوا: «عَلَيْنَا إِلْقَاءُ الْأُصُولِ وَعَلَيْكُمُ التَّفْرِيعُ»[6] و«إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُلْقِيَ إِلَيْكُمُ الْأُصُولَ وَعَلَيْكُمْ

(١) الكافي: ج٨ ص٢٢/ خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وهي خطبة الوسيلة ح٤.

(٢) في غرر الحكم: ص٥٢ أعقل الناس ح٣٨٥: (أعقل الناس من أطاع العقلاء).

(٣) نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة: ٣١.

(٤) نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة: ١٦١.

(٥) شورى الفقهاء والقيادات الإسلامية: ط/ ٤ ص٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٦) مستطرفات السرائر: ٥٧٥.



أَنْ تُفَرِّعُوا»[١] وقد امتثل علماء الفقه لهذا الأمر امتثالاً عظيماً وأبلوا فيه بلاء حسناً حيث بنى الفقهاء العظام على مرّ التاريخ الفقه على أساس التفريع عن أصولهم وقواعدهم عليهم السلام، ولكن ذلك لم يُلتزم به كما ينبغي وبالمستوى الذي اعتمده الفقهاء، في البحوث العقدية (العقائدية) ولا في العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحقوقية وشبهها؛ إذ لم نجد منهجية التفريع على أصولهم عليهم السلام في مسائل علم الكلام حتى بمستوى العشر مما صنعه علماء الفقه، وأما السياسة والاجتماع وسائر العلوم الإنسانية فلعل النسبة لا تبلغ حتى الواحد بالمائة.

الشاكلة اختيارية وغير اختيارية

وهذه الآية الشريفة مما يمكن أن تفرّع عليها أو تستلهم منها مسائل كلامية متعددة:

منها: إن الشاكلة على قسمين اختيارية ولا اختيارية.

ومنها: إن الثواب ثابت على صناعة الشاكلة الاختيارية الحسنة، كما لو لم يكن حليماً فتحلَّمَ حتى صار حليماً، بل وأن الثواب على الفعل الحسن المتوقف عليها اقتضاءً أعظم وأكبر من الثواب على الفعل الحسن غير المتوقف على تمهيد الشاكلة الحسنة.

درجات العقوبة على الشاكلة الاختيارية السيئة

ومنها: إن العقاب على صناعة الشاكلة الاختيارية السيئة بما يترتب عليها من فعل المعاصي، أعظم من العقاب على المعصية التي لم تكن بحاجة إلى تمهيد صناعة الشاكلة السيئة.

---

(١) مستطرفات السرائر: ٥٧٥.

والمقصود استحقاق العقاب والثواب، أما العقوبة والمثوبة بالفعل فقد تكون متعلق فضل الله تعالى، والذي ندعيه أن بناء العقلاء على ذلك.

ويوضحه: إن العقلاء يرون وجوب عقاب من تعمدّ جرح غيره أو قطع يده أو قتله فيما إذا ثارت قوته الغضبية من غير سابق إعداد طويل، بقصاصٍ أو سجن أو غرامة ثقيلة أو شبه ذلك، لكنهم إذا علموا بأن هذه الجريمة صدرت عنه عن سابق عزم وإصرار كما لو كان قد خطط للجريمة سنة كاملة وقد صدرت عنه عن حقد أو حسد شديدين فإنهم يرونه مستحقاً لجزاء أقسى وأعنف، ولئن خفّفوا عن الأول أو وجدوه مستحقاً له فانهم لا يخفّفون عن الثاني أبداً فربما يخففون الإعدام إلى السجن خمسة وعشرين سنة مثلاً في الأول، أما إذا عرفوا أن شاكلته النفسية هي شاكلة خبيثة وأنه انطلق عنها بحقد وإصرار فإنهم لا يجدونه ممن يستحق الرحمة أو التخفيف أو العفو.

بعبارة أخرى: الأمر بنظر العقلاء مرتهن بأمور ثلاثة:

العقوبة رهن نوع الجريمة، كثرة المقدمات، وخبث الشاكلة

أولاً: نوع الجريمة التي فعلها عن قصد وشعور واختيار.

ثانياً: طول المدة التي أعد فيها للجريمة وكمية المقدمات التي مهّدها لكي يحقق هدفه المشؤوم وجريمته المروعة.

ثالثاً: خبث الشاكلة وحسن الشاكلة التي يتميز بها هذا المعتدي، بل ودرجات الحسن والخبث، فكلما رأوا شاكلته أخبث وأسوأ، رأوه مستحقاً للعقاب بشكل أكثر ولم يجدوا له مجالاً للعفو أو التخفيف وكلما رأوا شاكلته النفسية حسنة وجدوه مستحقاً ـ ولو بدرجة ـ للتخفيف عليه أو لأقلية استحقاق اللوم من سابقه.

وكذلك طول المقدمات وكثرتها وعدمه، وقد استظهرنا في مقدمة الواجب والمستحب أنه قد يستحق الثواب عليها وأن من الأدلة الثواب المذكور في الروايات على المشي لزيارة الإمام الحسين عليه السلام وعلى كل خطوة خطوة منها، والظاهر منها أن الثواب عليها بنفسها، خلافاً للآخوند رحمه الله الذي رأى أن الثواب والعقاب لا يكونان إلا على ذي المقدمة وأن ما ذكر فيه الثواب على المقدمة لا بد أن يؤول بوجهٍ ككونه على ذي المقدمة لأنها صارت أحمز أو ككونه صِرف تفضل أو ما أشبه.

ولم أجد من طرح المسألة الأخرى ببحث فقهي ـ كلامي مستفيض، وهي:

أولاً: مبحث استحقاق الثواب والعقاب على صناعة الشاكلة الحسنة أو السيئة، وثانياً: مبحث أن من عصى وكان عصيانه موافقاً لشاكلته السيئة اللااختيارية كان مستحقاً لعقوبة أخف ممن كان عصيانه موافقاً لشاكلته السيئة الاختيارية أو ممن لا شاكلة سيئة له أصلاً، وقد ذكر ذلك بعض في الثواب وأن من أطاع رغم قوة شهواته وأهوائه المانعة له عن الإطاعة فإن أجره أعظم كما لو غض البصر رغم قوة قوته الشهوانية أو منع نفسه من ضرب الغير رغم شدة قوته الغضبية، وقد يدعى أن ذلك كله مقتضى العدل وأنه مما يستقل به العقل، فتأمل.

كيف نكبح الشواكل؟

إن العوامل المؤثرة في كبح الشواكل أو السيطرة عليها هي عوامل كثيرة، وعناوينها كالآتي:

١ ـ نظام المثوبات. ٢ ـ الرقابة الصارمة.

٣ ـ الرأي العام الضاغط ممنهجاً كان أو غير ممنهج[1].

(١) والأول أقوى تأثيراً.

٤ ـ نظام التدافع ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾(١) وسنعقد لهذه العوامل الأربعة سلسلة من الحلقات التفسيرية القادمة بإذن الله تعالى.

٥ ـ نظام العقوبات، ويتضمن هذا النظام أنماطاً مختلفة من العقوبات السابقة على العمل أو المقارنة أو اللاحقة كما يتوزع هذا النظام بين العقوبات التي تمارس بحق المجرمين ـ شرعياً أو قانونياً ـ وبين العقوبات التي يجب أن تستخدم لإيقاف الحاكم الجائر والمسؤول الفاسد عند حده، وبين العقوبات التي تمارسها الحكومة بحق المعارضة أو التي يمارسها أتباع دين ضد أتباع دين آخر أو أتباع مذهب ضد مذهب آخر(٢)، وسنقصر الكلام الآن على القسم الثاني بإيجاز فنقول:

بصيرة قرآنية: طرق السيطرة على الشواكل الخبيثة(٣)

حيث إن كلّا يعمل على شاكلته، وحيث إن شواكل كثير من الناس هي شواكل سيئة كشاكلة الحسود أو الحقود أو الأناني أو المتكبر أو المغرور والمعجب بنفسه، بل إن شواكل عامة الناس هي ـ من بعض الجهات ـ سيئة كما فيما قاله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾(٤) و﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾(٥).

وحيث إن السلطة وأي نوع من القدرة هي مفسدة للمرء أي مفسدة،

(١) سورة البقرة: ٢٥١.

(٢) ومن ذلك سياسة الرعب والصدمة التي وضع أسسها المخططون الاستراتيجيون العسكريون وقد تحدثنا عنها في كتاب (قولوا للناس حسناً، ولا تسبوا).

(٣) أو تحديد تأثيراتها السلبية.

(٤) سورة المعارج: ١٩ـ٢١.

(٥) سورة العلق: ٦ ـ ٧.

لذلك كان لا بد من وضع كوابح للشواكل الفاسدة، وذلك عبر وسائل كثيرة أهمها أمران:

١ـ النظام السليم والهيكلية الصحيحة

أولاً: النظام السليم والهيكلية الصحيحة والإطار[1] العام الصحيح المهيمن الذي يضع كل فرد في ضمن دائرة صلاحياته ولا يسمح له بتجاوز حدوده، ومن مفردات النظام السليم إقرار نظام التدافع الاجتماعي انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾[2] وهذا الأمر يحتاج إلى عقد سلسلة بحوث خاصة له، وسنأتي على ذكرها لاحقاً بإذن الله تعالى.

٢ـ تفعيل نظام العقوبات

ثانياً: نظام المثوبات والعقوبات، والذي يتأكد ضرورة إقراره وتفعيله مع المسؤولين، خاصة المسؤولين الكبار منهم، فإنه إذا كان طبع الإنسان أنه ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ فإن صلاحه واستقامته قبل الجلوس على كرسي الحكم (بأي درجة من درجاته) لا يكفي كضمان لاستقامته وصلاحه بعد جلوسه على هذا الكرسي السحري الذي يغيّر ماهية الأعم الأغلب شبه المطبق من الحكام والمسؤولين.

الشدة في معاقبة المسؤولين على لسان أمير المؤمنين عليه السلام

ولذلك نجد أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر يأمره بتطبيق هذا المنهج على المسؤولين والعمال، بقوة إذ يقول: «وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ

---

(١) أو السيستم.

(٢) سورة البقرة: ٢٥١.

شَاهِداً فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ»[١] فلا يكفي أن يعاقب في بدنه بالجلد أو الضرب، بل يجب أن يعاقب معنوياً وأدبياً في سمعته ومكانته الاجتماعية أيضاً، «ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ» لكي يكون عبرة لكافة المسؤولين كي لا يتجاوزوا الحدود ولا يغرقوا في مستنقع الفساد المالي أو الإداري ولا يتخذوا «مَالَ اللَّهِ دُوَلًا وَ عِبَادَهُ خَوَلًا»[٢] ولا يسرقوا من المال العام بسرقة مقنعة وغير مقنعة ولا يرشوا أو يرتشوا ولا يحتجبوا عن الرعية، وألف لا ولا.

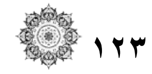
والأغرب أننا نجده صلوات الله عليه يعاتب أو يعاقب بعض المسؤولين في حكومته أشد العقاب أو العتاب لمجرد أنه فعل مكروهاً وأنه كان نخبوياً في بعض تصرفاته لا جماهيرياً!

فلنقرأ معاً رسالته المدوية عبر التاريخ إلى عثمان بن أبي حنيف إذ كتب إليه يقول: «أَمَّا بَعْدُ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ

(١) نهج البلاغة: باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، من كتاب له للأشتر النخعي رحمه الله، الكتاب: ٥٣.

(٢) نهج البلاغة: باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، من كتاب له إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رحمه الله لما ولاه إمارتها، الكتاب: ٦٢.



أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»[١].

وذلك رغم أن ذهاب الوالي إلى وليمة بعض التجار ليس أمراً محرماً، لكن الوالي عليه أن يكون في قمة درجان النزاهة وأن يساوي بين الرعية بأقصى درجات المساواة فلا يحضر إلى مأدبة عَلِيّة القوم ماداموا لم يدعوا إليها الفقراء والمستضعفين!.

بحث تطبيقي: اللغز الغريب وراء الأداء البائس للحكومة العراقية!

إن دراسة شواكل الأفراد والشخصيات والأحزاب وشبهها تكشف لنا بعض السرّ في اللغز الغريب الذي حيّر العقلاء والمتدينين وحيّر العلماء والمثقفين وحيّر الخواص والعوام على حد سواء! وهو: أنه ما هو السبب الخفي وراء أداء حكومتنا البائس بل ما هو السبب في تقصيرهم المروّع، أو قصور بعضهم المذهل في كل شيء تقريباً! إذ كيف يعقل أن تمضي حوالي خمسة عشر عاماً والحكم بيد الإسلاميين من شيعة وسنة ثم تجد الخدمات الأولية صفراً على الشمال؟!

أليس من الغريب أن تجد القاذورات تتميز بها أزقة الكثير من المدن حتى المقدسة؟ مع أن من البديهيات الوجدانية أن «النَّظَافَةُ مِنَ الْإِيمَانِ»[٢] وأنها من العقل، وهي من الإنسانية ومن أوليات واجب الدولة! ومع أن تنظيف هذه المدن من أبسط ما يكون!

وأليس من الغريب أن لا تحلّ الحكومة مشكلة الكهرباء؟ مع أنه ـ حسب دراسة قدمها بعض الخبراء ـ فإن ستمائة مليون دولار كافية لتشييد محطات طاقة توفر الكهرباء للعراق كله، وذلك رغم أن وارد العراق السنوي من النفط يقارب

(١) نهج البلاغة: باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وكان عامله على بصرة، الكتاب: ٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٥٩ ص٢٩١.

ـ معدلاً ـ مائة مليار دولار أو أقل أو أكثر؟ ورغم مضي ١٥ سنة على تسلم الإسلاميين للحكم؟

وأليس من الغريب أن أغلب الشوارع والأزقة في كل العراق شوارع بدائية بائسة متشققة؟ والمجاري في كل العراق مجاري تشبه مجاري القرون الوسطى؟

وأليس من الغريب أن العراق لا يشهد نهضة عمرانية في الجسور والأنفاق والمطارات وسكك الحديد والمواصلات وغيرها؛ لا بل لا يزال في تخلف مذهل من هذه الجهة أيضاً؟!

بل وأليس من الغريب أن حكومتنا الموقرة لم تبنِ طوال هذه المدة حتى ألف مسجد في أنحاء العراق مع أن بعض دول الجوار، رغم تعصبها وجهلها، بنت ألوف المساجد إن لم يكن عشرات الألوف من المساجد داخل بلادهم وفي أرجاء العالم!

ألم يقل تعالى: ﴿الَّذينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1] فلماذا لم يُقِم قومنا الصلاة؟ ولماذا لا يبنون المساجد وقد بنى رسول الله ﷺ في المدينة ذات العشرة الآلاف نسمة، خمسين مسجداً!! وكان المفروض حسب معادلة مسجد لكل مائتي شخص ـ المستفادة من كيفية عمل النبي ﷺ في المدينة المنورة ـ أن يبني الرساليون الحكام في العراق عشرات الألوف من المساجد!! ولو أنهم بنوا عشرة آلاف مسجد فقط لكان ذلك يعني مسجداً لكل أربعة آلاف شخص تقريباً! ولكن الحكومةَ الشيعية ـ السنية لم نرها تبني حتى ألف مسجد بل حتى خمسمائة بل حتى مائتي مسجد ـ إلا بعض المساجد بجهود شخصية مِن بعضِ مَن في الحكومة

(١) سورة الحج: ٤١.

لا كبرنامج حكومي ـ فما هو السبب يا ترى؟ أليس حكامنا هم أبناء النجف وكربلاء والكاظمية من الشيعة، وأبناء الأعظمية والموصل وغيرها من السنة؟

ثم لنقل دع عنك هذا كله: أليس من الغريب أن لا تتصدى هذه الحكومة لبناء المياتم لكافة عوائل الشهداء خاصة عوائل شهداء الحشد الشعبي؟ مع أن بقاء هؤلاء المسؤولين في سدة الحكم كان رهناً بأبطال الحشد الشعبي وإلا لكانت داعش احتلت بغداد وعلقت رؤوس هؤلاء وغيرهم على المشانق أو أحرقتهم بالنيران أو أغرقتهم بالمياه! أليس غريباً حقاً أن نجد مراجع التقليد رغم أنهم لا يملكون حتى واحداً بالمائة من امكانيات الدولة يتصدون لبناء المئات من المساكن للأيتام أما الحكومة فلا تفعل إلا القليل القليل مع أن أموال النفط والضرائب بالمليارات؟

والأغرب من هذا كله أن هؤلاء إن فكروا بمنطق الآخرة والعقل والوجدان والإنصاف لوجب عليهم أن يفعلوا ذلك كله وأكثر، وإن فكروا بمنطق الأنا والدنيا والمنافع الدنيوية والأرباح والخسائر لوجب أن يفعلوا ذلك كله! إذ أليس من الواضح أنهم لو عمّروا البلاد وشيّدوا المصانع والمعامل وبنوا المياتم والحسينيات والمساجد والمستشفيات، لأحبهم الناس ولانتخبوهم بكل حب وإخلاص ولضمنوا حينئذٍ البقاء على كرسي الحكم إلى ما شاء الله؛ ولكنهم خذلوا الناس أي خذلان، والناس إن انتخبتهم فعلى مضضٍ وفراراً من الأسوأ إلى السيء ـ في نظر الكثير منهم على الأقل ـ، بل ويشهد لذلك تدني إقبال الناس على صناديق الاقتراع رغم الإحساس بخطورة الفرار من السيء للأسوأ.

والقائمة تطول وتطول... إذ أليس من الغريب أن تنهار الزراعة في العراق انهياراً رهيباً والحكومة لا تفعل شيئاً ـ إلا فقاعات باهتة وحجج بدائية لا تقنع

حتى الأطفال ـ.

وأليس من الغريب أن لا تشيّد الحكومة المعامل والمصانع؟ بل الأغرب أن العشرات من المصانع الكبرى والرئيسية عاطلة منذ سنوات والحكومة لا تحرك ساكناً؟

إن ذلك كله هو العجب العجاب ؛ أليس الكثير من المسؤولين كانوا من المجاهدين زمن صدام بل كان العديد منهم من طليعة المجاهدين ! وأليسوا قد قدموا الشهداء إثر الشهداء؟ وأليس العديد منهم قد تعرض للسجن والتعذيب ومصادرة الأموال وغير ذلك؟ وأليسوا يؤمنون بالله والرسول والقرآن العظيم؟ فما عدا مما بدا؟

وإذا كان لكم عذر فاصحروا للناس بأعذاركم!

ولئن كان لهم عذر في كل ذلك ـ ولا عذر لهم يقبله جاهل فكيف بالعالم والعاقل ـ فليعقدوا مؤتمرات صحفية مفتوحة تحضر فيها المعارضة ومختلف وسائل الأعلام فليشرحوا للناس أعذاراهم : لماذا لا يبنون المياتم للأيتام والمساجد للعبّاد، والجسور والأنفاق والمصانع والمعامل لتطوير البلاد؟ وألف لماذا ولماذا؟ وسوف نكتفي منهم بالعمل بأمر الإمام علي عليه السلام الصريح في ذلك إذ يقول: «وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ... وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ

الْحَقِّ وَالْخُلْف يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ...

امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ وَسَوْرَةَ حَدِّكَ وَسَطْوَةَ يَدِكَ وَغَرْبَ لِسَانِكَ وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الاخْتِيَارَ وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ وَتَمَامِ النِّعْمَةِ وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً وَالسَّلَامُ»[١].

إن ذلك كله غريب حقاً! ولقد حيّرني طويلاً ولقد سألت العشرات من العلماء والمفكرين والمثقفين من شتى الخطوط والألوان، ومن المسؤولين وغيرهم، عن السبب في هذا الوضع المأساوي لأداء حكومتنا الموقرة فلم أزدد إلا حيرة في السبب الحقيقي لذلك كله!

من الأسباب

نعم توصلت إلى حوالي عشرين سبباً لذلك؛ ولكن مع ذلك لا تزال

(١) نهج البلاغة: باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، من كتاب له عليه السلام للأشتر النخعي رحمه الله لما ولاه مصر، الكتاب ٥٣.

الحيرة قائمة!

ولكن طبيعة هذا البحث تقتضي الإشارة إلى سببين من الأسباب بما يتناغم مع محور البحث ومادته:

السبب الأول: الشاكلة.

السبب الثاني: نظام المثوبات والعقوبات ـ وقد أشرنا إليه إشارةً ـ.

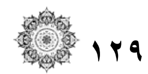
وتوضيحهما:

١ ـ شاكلة حكامنا لم تكن خدمة الناس ولا عمران البلاد

أولاً: إن الذي يبدو أن معظم الذين وصلوا إلى الحكم لم تكن شاكلتهم منذ يفاعتهم إلا نفس شاكلتهم التي هم عليها الآن إن لم تكن شاكلتهم الآن الأسوأ بسبب التأثير العميق للكرسي الذي يورث الطغيان كما يورث النسيان: نسيان الوعود والعهود التي أعطوها لله تعالى من قبل وللناس من بعد.

والدليل على ذلك واضح والمؤشر عليه دقيق: فإن المتصدّين للحكم الآن من وزراء ورؤساء ومسؤولين وأعوان لم يشهد تأريخهم بأن شاكلتهم ـ إلا القليل منهم ـ كانت شاكلة بناء مياتم لعوائل الشهداء أو بناء مساجد أو بناء مدارس أو مستشفيات ولا التطوير الزراعي أو الصناعي ولا عمران المدن حتى في الحد الأدنى الذي يمكن لأي مواطن أن يقوم به وحتى في حدّ الاهتمام على المستوى النظري بذلك بأن يكون همّه كتابة سلسلة من المقالات التثقيفية أو العلمية حول ذلك كله؛ ولئن فعل أحدهم شيئاً من ذلك فأبحث عنه فستجد أنه كان استثناء وأنه لظرف طارئ أو ضاغط كان قد بنى مسجداً أو مشفى أو ميتماً وإنما كانت شاكلته الاهتمام بقضايا أخرى، وقد يستثنى من ذلك القليل منهم أو النادر.

ولئن وجدت أحدهم الآن بنى مسجداً أو ميتماً أو شبه ذلك فذلك بجهده



الشخصي وليس أن الحكومة بما هي حكومة اهتمت بذلك أو أعطته الأولوية، أي أنه ليس الطابع العام لها ذلك.

بعبارة أوضح: لقد تربي معظم هؤلاء على الثورة في مقابل الطاغوت والكثير منهم تربي على أن يكون رسالياً ـ وذلك حَسَنٌ دون شك ـ ولكنهم لم يربّوا ـ عادة ـ على أن يبنوا المساكن للفقراء! بل لعل الكثير منهم كان يعتبر ذلك هامشياً أمام مسؤوليات أكبر عليه أن يتصدى لها! كما لم يربّوا على أن يبنوا المياتم أو المساجد أو المستشفيات أو أن يخططوا لنهضة زراعية أو صناعية أو تجارية، وإن كان شيء من ذلك فإنما كان في بعضهم ـ إن لم يكن أكثرهم ـ في دائرة حاجته الشخصية فقط، كتجارته هو أو كمعمله ومصنعه هو مما يبقى في إطار دائرة الأنا ولا غير.

٢ ـ عدم تفعيل نظام العقوبات على فساد المسؤولين

ثانياً: انعدام نظام العقوبات والمثوبات عملياً في هذه الحكومة الموقرة؛ فهل رأيت مسؤولاً كبيراً يعاقب لفساد مالي أو إداري؟ وهل رأيت أحدهم يسجن لأجل رشوة ارتشاها أو مناقصة محاباتية أرساها على شركة معينة؟ أو على فشل ذريع في إحدى المشاريع أو الوزارات التي تَسلَّم مسؤوليتها؟ أو على أكلِهِ أموال النفط والضرائب وخَضْم مال الله خضم الإبل نِبتة الربيع؟ أو على ألف شيء وشيء؟!

بل نقول: إن الكثير من المسؤولين قد يكون قبل تسلم السلطة ـ بأي مستوى ـ كان صالحاً بالفعل، بل قد تكون شاكلته الاهتمام باليتامى والأرامل وبالمياتم والمساجد وبعمران المدينة، لكن السلطة لها سحرها الغريب وهي تغيّر الكثير من أقوى الناس، فإن في نارها تحترق الشواكل الصالحة وتذوب في مياهها

الآسنة المتعفنة الصفات الحسنة ؛ أليس الله تعالى هو القائل : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ و﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[١] وأليس من الإيمان إيمان مستعار؟ لذلك كان لا بد من أن لا يُؤمن من تَسلَّم السلطة مهما كان عدلاً تقياً (لا يأمن هو نفسه من طغيانها وهواها ، ولا يأمنه الناس أبداً) بل لا بد من فرض رقابة صارمة عليه كما في الرواية السابقة ، ثم لا بد من فرض عقوبات شديدة على أية مخالفة مالية أو إدارية أو غيرها.. وحينئذٍ يرجى ان يتحسن وضع البلاد سريعاً بلطف الله تعالى.

نماذج من معاقبة الرؤساء، على الفساد المالي

وقد سلكت دول العالم هذا المنحى فتغير حالها سريعاً ؛ ويكفي أن نعرف أن : ما جاء في بعض الأخبار والتقارير :

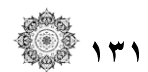
في عام ٢٠١٥ أُجبر الرئيس أوتو بيريز مولينا وهو رئيس "غواتيمالا" على الاستقالة بعد أن جرده الكونغرس من الحصانة ، وذلك على ما قالوا بسبب دوره في مخطط فساد ضخم يضم دائرة الجمارك الوطنية.

في جنوب أفريقيا ، قام المؤتمر الوطني الأفريقي الحاكم هذا العام بإقالة الرئيس جاكوب زوما المتهم بالفساد.

وفي عام ٢٠١٧ عزلت كوريا الجنوبية رئيستها باك غن هي بتهمة الرشوة والتهم الأخرى ، وفي عام ٢٠١٨ أُدينت بتهمة إساءة استخدام السلطة والإكراه والرشوة وحُكم عليها بالسجن لمدة ٢٤ عاماً.

وفي ماليزيا ؛ جرى التحقيق مع رئيس الوزراء السابق نجيب عبد الرزاق بسبب اختلاسه من الشركة الإستراتيجية الماليزية

(١) سورة الذاريات : ٥٣.



(MDB١ Berhad- Development Malaysia) التي يرأسها. وقد زعمت وزارة العدل الأمريكية أنه تم اختلاس ٤.٥ مليار دولار من هذه الشركة، وقد نفى نجيب الذي اتهم باستخدام بعض المال لشراء مجوهرات لزوجته، ارتكاب أي مخالفات.

فهذا هو الدرب الذي تسير عليه العديد من دول العالم وهذا هو الذي قضى على الفساد بدرجة أو أخرى، فلماذا لا نفعل ذلك وقد أمرنا ديننا الإسلامي بذلك بل حكم به وجداننا حتى قبل ان ينصحنا العقلاء بذلك!

التجربة الإندونيسية، مقارنة بالتجربة العراقية

وهنا سنعقد مقارنة سريعة بين شاكلة حكومتين: الحكومة العراقية بعد ٢٠٠٣م والحكومة الإندونيسية بعد ٢٠٠٤م أي بين وضع العراق وبين وضع إحدى أكثر دول العالم تخلفاً ـ كانت ـ بعد أن عقدنا في الماضي مقارنة بين العراق وبين اليابان، لكن الكثير قد يشعر بأن المقارنة غير عادلة إذ أين نحن وأين اليابان؟ ومع أن الواقع هو أنها مقارنة عادلة إذ المطلوب السير على الصحيح مما ساروا عليه وليستغرق ذلك عشرات السنين وليس المطلوب أن نصل إليه في لحظة أو شهر أو سنة؛ ولكن المأساة أننا نأبى أن نبدأ مسيرة الإصلاح ولذا لا يمكن أن نصل إليهم، لو استمرينا على هذه الحال، حتى بعد ألف سنة! وعلى أي فإندونيسيا دولة متخلفة ـ لا تزال ـ تكافح الفساد والتخلف والجهل إلا أن وضعهم تحسّن سريعاً بعد أن بدأوا حقيقةً مسيرة الإصلاح، فلنستعرض لمحات من ماضي إندونيسيا لنكتشف بوضوح أن ماضيهم كان أسوأ منا بكثير لكنهم حيث بدأوا إصلاح أمرهم منذ عام ٢٠٠٤م تغيرت أمور البلاد بشكل مذهل ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾[١].

(١) سورة الرعد: ١١.

فلقد خضعت أجزاء من إندونيسيا منذ ١٦٠٢م للاحتلال الهولندي تحت ستار شركة الهند الشرقية الهولندية التي نهبت ثروات البلاد وعاثت في الأرض الفساد، ولقد استمر الاحتلال وتوسع حتى الحرب العالمية الثانية ثم احتلتها اليابان لفترة قصيرة ثم قاد الشعب بقيادة سوكارنو عام ١٩٤٥ ثورة ضد الاحتلال واستلم الثوار وزعيمهم الوطني أزِمَّة الحكم، ولكن المفاجأة ـ وليس بمفاجأة ـ أنه حين جلس على الكرسي طغى وتجبّر واجهض الديمقراطية الوليدة وانتهج منهج الاستبداد بشكل متزايد.

وكان من نتائج ذلك أن بدأ التضخم يزداد شيئاً فشيئاً وبدأت العملة الوطنية تفقد قيمتها أكثر فأكثر ثم ازدادت وتيرة التضخم السنوي حتى بلغت في الستينيات ألف بالمائة كل عام! وهو رقم مذهل إذ ذلك يعني أن البضاعة التي كانت في أول السنة تقيّم بمائة ألف مثلاً كانت تبلغ في آخر السنة المليون ثم آخر السنة القادمة تصبح عشرة ملايين!! ولكن المستبدين ـ رغم كل ذلك ـ لا يرعوون ولا يعتبرون ولا يتراجعون بل ولا يعترفون!.

بعد ذلك أدخل سوكارنو بسوء تدبيره البلاد في حرب داخلية راح ضحيتها خمسمائة ألف إلى مليون إنسان! وذلك بعد أن اتهم الطرف الآخر عام ١٩٦٥ بمحاولة الانقلاب عليه فشن حملة انتقام واسعة؛ ومع ذلك كان يعتبر نفسه الحاكم الأصلح والولي المطلق الأعقل للبلاد!

ثم إن (سوهارتو) قاد الشعب ليطيح بـ(سوكارنو) وجرى تعيين سوهارتو رسمياً رئيساً لإندونيسيا عام ١٩٦٨م؛ ولكنه انقلب على وعوده ومواثيقه وعلى الغرض الذي ثار الناس على سوكارنو من أجله، فأصبح سوهارتو الطاغوت الجديد؛ وقد قام بقمع المعارضة بشكل واسع وانزلق في أوحال الفساد بشكل



كبير واستمر حكمه إلى ١٩٩٨م أي مدة ثلاثين سنة لم تنتج للبلاد إلا الفساد واليباب والخراب.

وتقدّر منظمة الشفافية الدولية ما اختلسه رئيس إندونيسيا السابق سوهارتو من أموال الشعب وثرواته بما يتراوح بين ١٥ مليار دولاراً إلى ٣٥ مليار دولاراً!!

فهذا عن حكام إندونيسيا المستبدين، ويضاف إلى ذلك كله أن ظروف إندونيسيا هي أسوأ من العراق من جهات عديدة: فهي بلد الكوارث الطبيعية والعراق خِلو منها تقريباً ولله الحمد، كما أن حرائق الغابات فيها كثيرة والتي تشكل خسارة هائلة لهذه الثروة الطبيعية الكبرى إضافة إلى أن الحرائق تنشر سحباً كثيفة من الدخان الذي يغطي المزارع والمدن ويتسبب بأضرار فادحة جداً.

كما أنها عانت من الحركات الانفصالية ومن حروب عصابات متقطعة على إقليم آتشيه وبابوا واستمرت حوالي ثلاثين عاماً كاملاً حصدت الكثير الكثير من الأرواح ومن الاقتصاد أيضاً، وانتهت عام ٢٠٠٥م بإبرام اتفاق وقف إطلاق النار بين الجيش وبين الثوار.

كما عانت اندونيسيا ـ وكما سبق ـ من الفساد الإداري والمالي على مختلف المستويات بشكل رهيب؛ إضافة إلى ما عانته من ملازمات عملية التحول الديمقراطي ومصاعبه منذ عام ١٩٩٨م.

إضافة إلى ذلك كله فإنه توجد في إندونيسيا ٣٠٠ إثنية (ولا توجد في العراق حتى ٢٠ إثنية) كما توجد فيها ٧٤٢ لغة ولهجة مختلفة وهي كلها تشكل عوامل تمزق للبلاد فهذا هو واقع إندونيسيا سابقاً؛ ولكن لننظر ما الذي جرى بعد ذلك:

التحول الديمقراطي في إندونيسيا وحكومة العقلانية

ثم بعد ذلك كله غيّر الإندونيسيون من شاكلتهم الفكرية والنفسية بعض الشيء فتغيرت الأوضاع بشكل مذهل؛ ففي عام ٢٠٠٤م أجريت أول عملية انتخابات رئاسية مباشرة (وكان تحرير العراق عام ٢٠٠٣م للمقارنة).

وقد اتبعت الحكومة الجديدة سياسات عقلائية انهضت البلاد حتى حملت إندونيسيا التسلسل الـ٢٧ كأكبر دولة مصدرة في العالم عام ٢٠١٠م كما قدّر الناتج المحلي الإجمالي في هذا العام أكثر من ٧٠٦ مليارات دولار محققاً قفزة كبرى عن السنين الماضية.

كما أصبح الآن واحد من كل خمسة إندونيسيين ينتمي إلى الطبقة المتوسطة، وهذا يعني حوالي ٧٠ مليون إنسان؛ وهو رقم مذهل حقاً.

والسبب وراء ذلك كله أمور، منها:

أ ـ سياسة خفض الضرائب

أولاً: إتباع سياسات حكيمة عقلائية؛ فقد أقرت الحكومة أولاً خفض الضرائب على الناس (وحكومتنا تزيد الضرائب باستمرار، مع أن الضرائب تثقل كاهل الفقراء والأرامل والأيتام وعامة الناس بالأساس، ولو كانوا صادقين لوضعوا الضرائب على كبار الأغنياء فقط أي على الأغنياء دون الفقراء، مع قطع النظر عن حكم الشارع الأقدس بحرمة الضرائب مطلقاً).

ب ـ تقليل القيود على قوانين العمل

وثانياً: كما أن الحكومة قلّلت القيود على العمل وألغت الكثير من قوانين العمل وقيوده، عكس العراق الذي تجد فيه ألف قيد وقيد على أي عمل

استثماري أو غيره، بل تجد من يريد أن يشيّد مصنعاً أو معملاً أو شبه ذلك عليه أن يدفع لهذا رشوة ولذاك رشوة أخرى وللثالث رشوة ... وهكذا عليه أن يطارد الأوراق من دائرة إلى أخرى حتى يتعب ويملّ ويتوب من أن يفعل ذلك! أو أنه إذا واصل وطارد وأصرّ ونجح فبعد خسائر مالية كبيرة وبعد أن أحرقوا أعصابه بل وأحرقوا ساعات وأياماً وأشهراً أو سنيناً من عمره الثمين.

والغريب أن الحكومة هنا بدل أن تأخذ بأيدي من يؤسس المستشفيات الأهلية أو الجامعات الأهلية، تجدها تفرض الضرائب عليهم وتضطرهم إلى دفع الرشوة هنا وهناك إضافة إلى سلسلة طويلة من التعقيدات الإدارية والبيروقراطية؛ فهلا تعلمنا من إندونيسيا على الأقل؟!

ج ـ محاربة الفساد بشكل جاد

ثالثاً: إنهم حاربوا الفساد بشدة، ومن ذلك أن إحدى أقاليم إندونيسيا أسقطت أكثر من ٩٠٪ من أعضاء مجالسها لتورطهم في الكسب غير المشروع!

وهل وجدنا في العراق نظيراً لذلك؟ فهذا كله من جهة وهناك أمر آخر وهو:

إن نجاح الأمم والحكومات والأحزاب والمنظمات وأية جماعة بشكل عام يعتمد فيما يعتمد على كمية وكيفية الدراسات والكتب التي تقوم بتقييم التجربة بما لها وما عليها، وبإنصافٍ وموضوعية.

المطلوب: ألوف الدراسات لتقييم التجربة العراقية

والمطلوب من العلماء والمفكرين والمثقفين والحوزات والجامعات كتابة المآت من الكتب والدراسات التي تقيّم تجربة الحكومة الشيعية والسنية والكردية في العراق بدءاً من عام ٢٠٠٣م حتى الآن فما هي نقاط الضعف؟ وما هي نقاط

القوة؟ وما هي الأسباب؟ وما هي الحلول؟ وما هي الفرص؟ وما هي المخاطر؟

وحيث إننا أمة لا تكتب ولا تقيّم لذا يبقى كل شيء مجهولاً؛ ولا يعرف الناس بل ولا الخواص المشاكل الحقيقية! وجذورها! ومن وراءها؟! والحلول!.. وتبقى الحقيقة غامضة معتمة على الأجيال القادمة؛ وذلك يعني أن الأخطاء الاستراتيجية ستتكرر من جديد وأن الفشل سيعود لينتج الفشل وأن الخسائر في الزراعة والصناعة والعمران، بل وحتى في ثقة الناس وإيمانهم وأخلاقهم، ستبقى مستمرة مادام رجال السلطة هم رجال السلطة وما دام نظام العقوبات غير مفعّل ومادام الناقدون والمحللون الاستراتيجيون أقل من الأقل من القليل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾[١] وقال عليه السلام: «وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ»[٢].

وأخيراً: حدّد عملك ودورك ومستقبلك على ضوء شاكلتك

وفي الخاتمة نؤكد ما أشرنا إليه في أول الكتاب من أنه حيث كان صريح الآية الكريمة: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ فإن من أهم الضرورات أن يسعى كل منّا ليستكشف شاكلته النفسية ونمط شخصيته، ثم اللازم عليه أن يبني مستقبله على ضوء ما استكشفه من شاكلته بمعنى أن عليه أن يختار الموقع أو المنصب أو الدور أو الوظيفة أو العمل الذي يتجانس مع شاكلته وأن يتجنب اختيار الأدوار والأعمال والمواقع التي تتكاثر فيها احتمالات تجلي الشاكلة سلبياً عليها بشكل أو آخر.

(١) سورة يوسف: ١١١.

(٢) نهج البلاغة: باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السلام، من وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليهما السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين، الكتاب ٣١.

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة من أنماط الشواكل والشخصيات، والأدوار التي تشكل خطورة عليها ـ وقد سبقت الإشارة إلى بعضها فلاحظ ـ.

أصحاب الشاكلة الشهوانية

ـ مَن شاكلته النفسية قوةُ حالته الشهوية، فإن الواجب عليه أن يتجنب تماماً مواقع الإثارة كالتردد على الأسواق أو الشوارع أو المحلات التي تكثر فيها النساء المتبرجات، كما عليه تجنب تصفح المواقع التي هي في مظان ذلك، حتى المواقع الخبرية، كما عليه أن يتجنب الأعمال التي يكثر فيها الاختلاط بالنساء كمحلات بيع الذهب وشبه ذلك بل عليه أن يتجنب العمل في شركة يختلط فيها الرجال بالنساء خاصة مع ضعف ضوابط الاحتشام.

أصحاب الشاكلية العصبية

ـ مَن شاكلته النفسية قوة قوته الغضبية، فإن عليه أن يتجنب أية مهارة أو عمل أو دور قد تنفجر عبره قوته الغضبية بشكل خطر أو حتى بشكل غير متّزن أو مدروس، فمثلاً عليه أن يتجنب تعلم أمثال الكاراتيه والجودو والتكواندو ـ إلا لدى الاضطرار وضمن موازين باب التزاحم ـ لأنه لا يؤمن لدى ثورة قوته الغضبية في المنزل أو خارجه ان يعتدي على الآخرين متسلحاً بقوته ومهارته.

كما عليه أن يتجنب أن يكون معلماً للأطفال خاصة في بلادنا المتخلفة التي يضرب فيها المعلمون الأطفال بغير الحق في أكثر الأحيان وحيث لا توجد رقابة من الحكومات ولا عقوبة من المجتمع عليه، بل كثيراً ما يشجعونه على ذلك: فإن هذا المعلم ذو القوة الغضبية الكبيرة يضع نفسه في موقع خطر حيث تكثر احتمالات تعديه على الأطفال بالضرب أو حتى بالجرح، وذلك حرام قطعي[١]

(١) إلا فيما ثبت جوازه له بإجازة الولي وفي حدود التأديب فقط وبلا إيجاد حتى حمرة أو زرقة بالضرب.

بل وعليه الدية أيضاً.

ومن جهة أخرى فإن من عرف أن قوته الغضبية شديدة فعليه أن يختار عملاً يهدّئ قوته الغضبية أو يكبحها بشكل طبيعي دوماً، وذلك كأن يصبح مزارعاً أو تاجراً جوّالاً كثير الأسفار بما ينفس عن أعصابه ويريحها باستمرار... وهكذا.

الجبناء والمتهورون

ـ ومَن شاكلته النفسية الجبن، فإن عليه أن لا يتصدى لموقع يشكّل فيه الجبن خطراً، كأن يكون ضابطاً فكيف بقائد للجيش؟!

ـ ومَن شاكلته النفسية الجُربزية والتهور، فإن عليه أن يمتنع عن التصدي لأن يكون طبيباً جراحاً للقلب أو العين أو شبه ذلك مما يستدعي صبراً ودقةً وتثبتاً شديداً.

كما عليه أن يمتنع من التصدي لمقام الفتوى، لأن الفتوى بغير الحق من أعظم الكبائر وقد ورد عن أبي جعفر عليه السلام: «مَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى لَعَنَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ وَ لَحِقَهُ وِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِفُتْيَاهُ»[1].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى، لَعَنَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ وَلَحِقَهُ وِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِفُتْيَاهُ»[2].

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَا عَلِمْتُمْ فَقُولُوا وَمَا لَمْ تَعْلَمُوا فَقُولُوا اللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْتَزِعُ الْآيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَخِرُّ فِيهَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[3].

---

(١) الكافي: ج١ ص٤٢.

(٢) الكافي: ج١ ص٤٢.

(٣) الكافي: ج١ ص٤٢.

وعن زرارة بن أعين قال: سألت ابا جعفر عليه السلام: مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولُوا مَا يَعْلَمُونَ وَيَقِفُوا عِنْدَ مَا لَا يَعْلَمُونَ»[١].

ولكن بعضهم تراه يتسرع في الفتوى ويتساهل في عملية الاستنباط دون تثّبت وتفكر وتفقه كافٍ ودون إحاطة بكافة جوانب المسألة والأدلة والردود والمناقشات، بل تجد بعضهم؛ لغروره الشديد، يستحقر حتى رأي المشهور مع أن المشهور يعني المئات من العلماء والمحققين والمدققين، ومع أن إهانة العالم المحقق الواحد وتحقيره، رذيلة فكيف بالاستخفاف بالمئات من العلماء الذين يشكلون المشهور؟!

نعم لا ريب أن للمجتهد أن يستعرض أدلة الفقيه أو الأصولي الآخر أو المشهور وأن يناقشها ولكن بموضوعية؛ لكن النادر في العصر الأخير نراهم يبالغون في تصغير شأن المشهور أو حتى في الاستخفاف بهم حتى قال أحدهم إن رأي المشهور لا يسوى عنده بمقدار فلس واحد! وذلك مما يكشف عن غرور وإعجاب شديد بالنفس، وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «وَمَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ وَمَنِ اسْتَغْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ»[٢]، نعم له أن يناقش المشهور ولكن أن يقول إن رأيهم عنده لا يسوى فلساً واحداً فهذا هو الذي يستنكره العقلاء؛ إذ غاية الأمر أنه أحد العلماء وأما المشهور فإنه يتركب من مئات العلماء، فإذا كان رأي المشهور لا يسوى فلساً فرأيه إن كان ضمنهم فإنه لا يسوى فلساً أيضاً وإذا خالفهم فإنه لا يسوى فلساً أيضاً لأنه إذا كان المشهور معه كان بلا قيمة فكيف لو خالفه المشهور؟!

---

(١) الكافي: ج١ ص٤٣.

(٢) تحف العقول: ص٨٨.

وعلى أي فالإنصاف مطلوب والموضوعية لازمه، وإلغاء التبجح بالذات والإعجاب بها ورفض التمحور حول الأنا ضروري. والله المستعان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله الطيبين الطاهرين.

فهرس المصادر

❖ القرآن الكريم.

❖ نهج البلاغة.

❖ الكافي الشريف.

١ ـ تفسير الرازي / فخر الدين الرازي، ط٣.

٢ ـ الاحتجاج / أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي ﵀، نشر المرتضى ـ مشهد المقدسة، ١٤٠٣هـ.

٣ ـ الأمالي / الشيخ الصدوق ﵀.

٤ ـ الأمالي / الشيخ الطوسي ﵀، دار الثقافة للنشر ـ قم، ١٤١٤هـ.

٥ـ بحار الأنوار /العلامة المجلسي ﵀، مؤسسة الوفاء ـ بيروت، ١٤٠٤هـ.

٦ ـ تحف العقول /الحسن بن شعبة الحراني ﵀، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، ١٤٠٤هـ.

٧ ـ تهذيب الأحكام /الشيخ الطوسي ﵀، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

٨ ـ ثواب الأعمال / الشيخ الصدوق ﵀، دار الرضي للنشر ـ قم، ١٤٠٦هـ.

٩ ـ جامع الأخبار / تاج الدين الشعيري ﵀، دار الرضي للنشر ـ قم، ١٤٠٥هـ.

١٠ ـ الخرائج والجرائح / قطب الدين الراوندي رحمه الله ، مؤسسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ قم، ١٤٠٩هـ.

١١ ـ ربيع الأبرار ونصوص الأخيار / جار الله الزمخشري.

١٢ ـ روضة الكافي / ثقة الإسلامي الكليني رحمه الله.

١٣ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام.

١٤ ـ غرر الحكم /عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي.

١٥ ـ فتح الأبواب / السيد علي بن طاووس الحلي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام ـ قم، ١٤٠٩هـ.

١٦ ـ المحاسن / أحمد بن محمد بن خالد البرقي رحمه الله ، دار الكتب الإسلامية ـ قم، ١٣٧١هـ.

١٧ ـ مستطرفات السرائر / محمد بن إدريس الحلي رحمه الله ، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، ١٤١١هـ.

١٨ ـ مكارم الأخلاق / الحسن بن الفضل الطبرسي.

١٩ ـ من لا يحضره الفقيه /الشيخ الصدوق رحمه الله ، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، ١٤١٣هـ.

٢٠ ـ هداية الأبرار إلى طريق الأئمة الأطهار / الشيخ حسين بن شهاب الدين الكركي.

٢١ ـ وسائل الشيعة / محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت ـ قم، ١٤٠٩هـ.

٢٢ ـ وسيلة النجاة / أبو الحسن الموسوي الاصفهاني.

٢٣ ـ شرح المنظومة / الملا هادي السبزواري، نشر ناب ـ تهران.

٢٤ ـ شورى الفقهاء والقيادات الإسلامية / المؤلف، ط/ ٤ مؤسسة التقى الثقافية ـ النجف الأشرف.

٢٥ ـ مقوِّمات الاستنباط ومبادئه وشروطه / المؤلف.

٢٦ ـ نقد الهرمينوطيقا ونسبية الحقيقة والمعرفة / المؤلف، دار العلوم لطباعة ومؤسسة التقى الثقافية ـ بيروت.



الفهرس

كتب أخرى للمؤلف

١. الاجتهاد في أصول الدين، مخطوط.
٢. استراتيجيات إنتاج الثروة ومكافحة الفقر في منهج الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، مطبوع.
٣. الأصول مباحث القطع، مخطوط.
٤. إضاءات في التولي والتبري، مطبوع.
٥. أضواء على حياة الإمام علي عليه السلام، مطبوع.
٦. الإمام الحسين عليه السلام وفروع الدين، دراسة عن العلاقة الوثيقة بين سيد الشهداء عليه السلام وبين كل فرع فرع من فروع الدين، مطبوع.
٧. الأوامر المولوية والإرشادية، مطبوع.
٨. (اهدِنَا الصِّرَاطَ الُمستَقِيمَ)، مطبوع.
٩. بحوث في الاحتياط، تحت الطبع.
١٠. بحوث في العقيدة والسلوك، مطبوع.
١١. بصائر الوحي في الإمامة، مطبوع.
١٢. تأثير الزمان والمكان في الاجتهاد والاستنباط، مخطوط.
١٣. التبعيض في التقليد، مطبوع.
١٤. تجليات النصرة الإلهية للزهراء المرضية عليها السلام، مطبوع.
١٥. التصريح باسم الإمام علي عليه السلام في القرآن الكريم، مطبوع.
١٦. تقليد الأعلم وحجية فتوى المفضول، مطبوع.

١٧. التقليد في مبادئ الاستنباط، مطبوع.

١٨. توبوا إلى الله، مطبوع.

١٩. الحجة؛ معانيها ومصاديقها، مطبوع.

٢٠. حجية مراسيل الثقات المعتمدة (الصدوق والطوسي قدس سرهما نموذجاً)، مطبوع.

٢١. حق الخلو (السرقفلية)، مطبوع.

٢٢. الحوار الفكري، مطبوع.

٢٣. الخط الفاصل بين الأديان والحضارات، مطبوع.

٢٤. دروس في أصول الكافي ـ الجزء الأول كتاب العقل والجهل، مخطوط.

٢٥. دروس وعبر من الكلمات القصار من نهج البلاغة، مخطوط.

٢٦. رسالة في أجزاء العلوم ومكوناتها، مطبوع.

٢٧. رسالة في أسلمة العلوم الإنسانية ـ مطبوع.

٢٨. رسالة في الحق والحكم، التعريف والضوابط والآثار، مخطوط.

٢٩. رسالة في فقه مقاصد الشريعة، مخطوط.

٣٠. رسالة في قاعدة الإلزام، تقريرات دروس الخارج في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، مخطوط.

٣١. رسالة في نقد الكشف والشهود، مخطوط.

٣٢. رسالتان في الخمس، مطبوع.

٣٣. السلطات العشر، تحت الطبع.

٣٤. سوء الظن في المجتمعات القرآنية، مطبوع.

٣٥. السيدة نرجس عليها السلام مدرسة الأجيال، مطبوع.

٣٦. شرح دعاء الافتتاح، مخطوط.

٣٧. شرعية وقدسية ومحورية النهضة الحسينية عليه السلام، مطبوع.

٣٨. شعاع من نور فاطمة الزهراء (عليها السلام)، دراسة عن القيمة الذاتية لمحبة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، مطبوع.

٣٩. شورى الفقهاء والقيادات الإسلامية بحث أصولي فقهي على ضوء الكتاب والسنة والعقل، مطبوع.

٤٠. فقه التعاون على البر والتقوى، مطبوع.

٤١. فقه الرؤى، دراسة في عدم حجية الأحلام على ضوء الكتاب والسنة والعقل والعلم، مطبوع.

٤٢. فقه المكاسب ـ مباحث البيع، مخطوط

٤٣. فقه المكاسب المحرمة ـ أحكام اللهو واللغو واللعب وحدودها، مطبوع.

٤٤. فقه المكاسب المحرمة ـ حرمة الكذب ومستثنياته، مطبوع

٤٥. فقه المكاسب المحرمة ـ حفظ كتب الضلال ومسببات الفساد، مطبوع.

٤٦. فقه المكاسب المحرمة ـ التورية موضوعاً وحكماً، مطبوع.

٤٧. فقه المكاسب المحرمة ـ رسالة في الكذب في الإصلاح، مطبوع.

٤٨. فقه المكاسب المحرمة ـ رسالتان في النجش والدراهم المغشوشة، مطبوع.

٤٩. فقه المكاسب المحرمة ـ مباحث الرشوة، مطبوع.

٥٠. فقه المكاسب المحرمة ـ مباحث النميمة، مخطوط

٥١. قاعدة اللطف، تحت الطبع.

٥٢. قولوا للناس حسناً ولا تسبوا، مطبوع.

٥٣. القيمة المعرفية للشك ـ مطبوع.

٥٤. كونوا مع الصادقين، مطبوع.
٥٥. لماذا لم يصرح باسم الإمام علي عليه السلام في القرآن الكريم؟، مطبوع.
٥٦. لمحات من حياة الإمام الحسن عليه السلام، مطبوع.
٥٧. لمن الولاية العظمى؟ مطبوع.
٥٨. مباحث الأصول ـ التعارض ـ، مخطوط.
٥٩. مباحث الأصول ـ الحكومة والورود ـ، مخطوط
٦٠. المبادئ التصديقية للاجتهاد والتقليد (بحوث تمهيدية)، مطبوع.
٦١. المبادئ التصورية والتصديقية للفقه والأصول، مطبوع.
٦٢. المبادئ والضوابط الكلية لضمان الإصابة في الأحكام العقلية، مخطوط.
٦٣. مدخل إلى علم العقائد، نقد النظرية الحسية، مطبوع.
٦٤. المرابطة في زمن الغيبة الكبرى، مطبوع.
٦٥. معالم المجتمع المدني في منظومة الفكر الإسلامي، مطبوع.
٦٦. مقاصد الشريعة ومقاصد المقاصد اللين والرحمة نموذجاً، مطبوع.
٦٧. مقتطفات قرآنية، مطبوع.
٦٨. مقدمات الاجتهاد والاستنباط وشروطه.
٦٩. ملامح العلاقة بين الدولة والشعب، مطبوع.
٧٠. ملامح النظرية الإسلامية في الغنى والثروة والفقر والفاقة، بحث عن هندسة اتجاهات الفقر والغنى في المجتمع، مطبوع.
٧١. مناشئ الضلال ومباعث الانحراف، مطبوع.
٧٢. نسبية النصوص والمعرفة... الممكن والممتنع، مطبوع.
٧٣. نقد الهرمينوطيقا ونسبية الحقيقة والمعرفة واللغة، مطبوع.

٧٤. وجيزة في التقليد ـ مطبوع.

٧٥. الوسطية والاعتدال في الفكر الإسلامي، مطبوع.